مقالة في العدل الاجتماعي

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

(١)

يبدو أن حركة التاريخ تنزع إلى أن ترمي بثقلها ، أكثر فأكثر ، صوب مسألة (توزيع الثروة) ، فازدياد وعي الإنسان بمرور الزمن ، وتطور الثقافات ، واتساع حجم العلاقات الاجتماعية وتضخمها ، وظهور العصر التكنولوجي ونموه الهائل وارتباطه بحدوث تمزق طبقي لم يشهد التاريخ له مثيلا ، وغيرها من التغيرات الشاملة في ميادين الحياة البشرية ، والتي أخذت تحتل أماكنها في خارطة العالم طيلة القرنين الأخيرين بالذات كما هو معروف ، نبهت المفكرين المتخصصين والناس العاديين الى مدى خطورة (المسالة الاجتماعية) ، ودعتهم الى مناقشتها (أكاديميا) ومحاورتها (عملياً) من اجل الوصول الى افضل صيغة يمكن معها ان يتحقق العدل الشامل في نطاق امة بعينها ، او في مدى العالم كله.

ومن البداهات المعروفة لكثير من المثقفين المعاصرين ، وقناعاتهم ، ان المشاريع (الاشتراكية) التي طرحها ، ونفذ بعضها ، حشد من الاشتراكيين الطوباويين في فرنسا وإنكلترا وغيرهما من بلدان أوربا في القرن الماضي ، كانت المحاولات الجادة الأولى لحل المشكلة الاجتماعية ، الا انه سرعان ما طغت عليها النزعات الخيالية ، بدلا من التصميم الواقعي ، والحلول الوسطية بدلا من التغيير الجذري ، وروح الشفقة والعطف بدلا من اعتماد (العنف) لرد الحق الى نصابه وانصاف المظلومين من الظالمين. ولم تستو هذه المعالجات الاشتراكية على سوقها وتتبلور وتأخذ نسقها العلمي كما يرى كثير من الدارسين الا على يد ماركس ورفيقه انكلز اللذين طرحا في مؤلفاتهما ، وبخاصة المنشور الشيوعي الاول وكتاب (رأس المال) ، التصميم النهائي للمسألة الاجتماعية ، قائلين ان نتائج دراساتهما ليست خيالا وعاطفة وانما جهدا عقليا خالصا ، فسموها (الاشتراكية العلمية) تمييزا لها عن سائر الاشتراكيات ، كما انها ليست ارتجالا توفيقيا وانما كشفا علميا عن حقائق الحركة التاريخية وحتمياتها الجدلية (الديالكتيكية) تلك التي تقضي بتبدل دوري في وسائل الانتاج ، يخلق ظروفا انتاجية معينة تكون بمثابة قاعدة تحتية شاملة تتأثر بها وتنفعل سائر الفاعليات الحضارية (الفوقية) ، فتتشكل بموجب ما تأمر به القاعدة ... وانه قد ان الاوان ، وحتمت تناقضات الحركة التاريخية ، زوال الظروف الانتاجية للرأسمالية وسائر مؤسساتها الحضارية ، وقيام حكم (الطبقة العاملة) حيث تلغى حقوق الملكية اساسا ، وتقوم الدولة ، او الطبقة الحاكمة ، نيابة عن المجتمع ، بادارة واستثمار وتوزيع الاموال العامة بأكبر قدر ممكن من التساوي بين الجميع وفق الشعار المعروف (لكل حسب حاجته).

(٢)

هذا بإيجاز تام هو مسار الحلول الغربية الحديثة للمسألة الاجتماعية على المستوى النظري ، وان كثيرا من المثقفين في عالمنا الإسلامي يوقنون فعلا بان الاشتراكية العلمية هي الحل النهائي ، والصيغة المثلى للعلاقات الاجتماعية ، وانها ليست مجرد معطيات شخصية نسبية كما هو الحال بالنسبة للاشتراكيات الطوباوية ، وانما هي علم مجرد وحقيقة تاريخية وحتمية لا مناص من الاعتراف بمقولاتها التي لم يخلقها ماركس خلقا من العدم وانما كشف عنها النقاب وقد كانت مطمورة.

وهم في غمرة انبهارهم بهذا التصميم العلمي للنظرية ، ينسون مجموعة هائلة من الحقائق والتناقضات تتعلق بصميم النظرية نفسها ، وبمناهج البحث التي قادت اليها ، كما تتعلق بما تمخض عن تطبيقاتها من نتائج ومعطيات (ليس هذا مجال تحليلها بطبيعة الحال) ، ويتشبثون تشبثا (دينيا) يجعلهم يرون فيها اليقين المطلق ، والحق الذي ما وراءه الا الباطل ، الامر الذي ينحرف بهم بدرجة او اخرى عن التزام المنهج العلمي الصحيح في الحكم على سائر المذاهب والافكار التي طرحت برامجها الاجتماعية لحل المشكلة ، وعلى راسها الاسلام ، ويحكمون بظنيتها ورجعيتها !!.

ويبدو ان هذا الاعتماد الخاطئ يكتسح اليوم قطاعات واسعة من المثقفين ، حتى ممن لا يؤمنون بالماركسية ايماناً مطلقاً ، بل يكتسح احزابا تقوم ايديولوجيتها على اساس (قومي) بينما لا ترى الماركسية في القومية سوى تعبير رجعي عن مرحلة بورجوازية عفى او سيعفى عليها الزمان!! ولا ريب ان عدوى " التقليد " تفعل فعلها في هذا المجال على كل المستويات .. فأشد الوجوديين (فردية) يتغزلون بين الحين والآخر بهذا الاله العلمي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واشد مأجوري الامبريالية اخلاصا لسادتهم ، يهرعون للانتماء الى اقرب حزب شيوعي ويتباهون بارتدائهم الاردية الحمراء ! واكثر الشباب تانقا وتظرفا لا يخلو حوارهم من مصطلحات ماركسية ، واشد بعض رجالات الدين والقس صليبية ، يقدمون صلواتهم ويباركون معطيات النبي الالماني الجديد .. وحتى اولئك الذين ينتمون لمجموعات الهيبيز المتفسخة الهائمة ، لن تعدم ان تجد فيهم ماركسيين من اول طراز!!.

ولا ريب ايضا ان حرب المصطلحات النفسية ، المعلنة والصامتة ، التي يعتمدها بدهاء عجيب دعاة الماركسية في تقسيم الناس الى تقدميين ، او اصدقاء للتقدمية ، ان امنوا بدعوتهم او اقتربوا منها ، والى رجعيين ، او عملاء للرجعية ، ان رفضوا دعوتهم ، وبعدوا عنها ،

أياً كانت اسباب الرفض والبعاد ، لا ريب انها تفعل فعلها .. وعندما يضعف الايمان في النفوس، وتتفكك العقائد في الاذهان ، ويتسرب اليأس الى القلوب ، يجد مثيرو هذه الحرب النفسية الميدان واسعا رحيبا ، فيرمون بشباكهم لاصطياد هذه الافواج القلقة الحائرة ، او كسبها الى صفّهم. ومن من هؤلاء يرفض ان يذهب الى صف العلم والتقدم ؟ ومن منهم يقبل على نفسه سمة الرجعية والتأخر ؟ ومن منهم لا يرغب في تغطية فراغه النفسي وخوائه المذهبي ، بمجرد انتماء الى مذهب يضعه في صف العلم والتقدمية ، ولا يكلفه الا حفظ مصطلحات محددة جاهزة وترددها .. وإلاّ رفضا غير علمي ولا مسؤول ، لكل ما تطرحه المذاهب والمعتقدات الاخرى بما فيها الاسلام الذي اعلن ماركس انه لا يعرف عنه شيئا ذا بال ؟ !!.

(٣)

هل معنى هذا ان نظل نحن ملتزمين الصمت حتى يحين اليوم الذي يعود فيه هؤلاء الى جدهم بعد ان تتبين لهم ، حينا بعد حين ، التناقضات التي يمارسها هذا الاله العلمي المزعوم في النظرية والتطبيق ؟! ام ان علينا ان نهرع لكي نطرح (على اوسع نطاق) برامج الاسلام الاجتماعية ، ونحلل ابعادها الحقيقية ، ونقطع الطريق ، دونما جلبة منبرية ، او ضوضاء بلاغية ، على كل القائلين برجعية الاسلام وبموقفه (اللاعلمي) من المسالة الاجتماعية ، ذلك الموقف الذي لا يعدو في نظرهم ان يكون اشفاقا على الفقراء والمساكين ودعوة للتبرع لهم والعطف عليهم ؟ وهو موقف يدعو الى النفور اكثر مما يدعو الى الارتياح والقبول ؟! والا فأي إنسان واع يرتضي من عقيدة ما ان تقف من الفقراء والمسحوقين هذا الموقف الأدبي ، دون أن تضع البرامج الكفيلة بالقضاء على الظاهرة او الحد منها ، ودون ان تنفخ في المظلومين روح الحركة والثورة لاسترداد حقهم من الظالمين والمغتصبين ؟!.

ان الجواب يجيء على ايدي عدد من الكتاب الاسلاميين اثروا ان يكتبوا عن بعض جوانب الموضوع ، ناقدين محللين ، وهم قلة على أية حال ، اذا ما قورنوا بمفكري وكتاب المذاهب الاخرى عن المسألة نفسها .. ومن ثم فان الطريق ما زال مفتوحا يحتّم علينا ان ننفر جميعا لمعالجة الموضوع على ضوء الاهمية الكبرى التي اوليت له في العصر الحديث ، وان

نعتبر بحثه ومناقشته (فرض عين) علينا جميعا ، حتى ولو قادنا الى عشرات الاخطاء ، فانما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى[1].

الموصل : عماد الدين خليل

---

(١) حبذا لو تنشط في فكرنا الإسلامي المعاصر حركة (ببليوغرافية) نقدية إزاء قطاعات هذا الفكر العديدة ، من اجل الاحاطة – قدر الامكان – بمعطيات كل قطاع في مصادره القديمة ومراجعه الحديثة. فيتولى احدنا مثلا تنظيم عرض ببليوغرافي لكل ما كتب عن الجانب الاقتصادي في الاسلام ، مذهبا ونظاما ، تصورا وتشريعا ، في القديم والحديث ، وسواء كان هذا الذي كتب اخرج في بحث مستقل أم نشر متداخلا مع مواضيع مختلفة ، وسواء قدم على شكل كتاب ام عمل موسوعي ام مقال في نشرة دورية .. مع عرض موجز للمسائل الاساسية الهامة المتعلقة بأي من هذه الأبحاث : المؤلف ، عصره ، ثقافته ، الخطوط العريضة للبحث ، موارده الاساسية ، تاثيراته ، حجمه ، محل النشر وزمنه ، مع دراسة نقدية مركزة عن (قيمة) البحث ، سلباً وايجابا ، وعن الموقع الذي يحتله على خارطة الفكر الاقتصادي – الاجتماعي في الإسلام. ولا ريب ان محاولة استقصائية نقدية كهذه ستجيء بمثابة دليل علمي لكل من يسعى للبحث في هذا الميدان. فهنالك في معطياتنا الفقهية القديمة تبرز اسماء مثل : ابن رشد ، الكاساني ، ابو يوسف ، ابو عبيد بن سلام ، الماوردي ، الغزالي ، ابو ادم القرشي ، ابن حزم ، الشاطبي .. وغيرهم ، يقابلها عدد كبير من اسماء المعاصرين الذين ادلوا بدلوهم في هذا الميدان ، في بحث واحد او عدد من الابحاث مثل : السباعي ، سيد قطب ، محمد الغزالي ، محمد العربي ، تقي الدين النبهاني ، ابو الاعلى المودودي القرضاوي ، العشماوي ، عمر عودة الخطيب ، محمد البهي ، محمد شوقي الفنجري ، ابراهيم الطحاوي ، فتحي عثمان ، عبد العزيز البدوي ، ابو السعود ، سعيد عبده ، مختار متولي .. وغيرهم.

ومن المستحسن ، بل من المهم ، بطبيعة الحال ، ان يتولى كبر هذه المهمة متخصصون في الموضوع نفسه ، او في علم المكتبات الذي نضج الى حد كبير في العقدين الاخيرين.

وما يقال عن القطاع الاقتصادي – الاجتماعي ، يمكن ان يقال عن أي قطاع اخر في العطاء الاسلامي الواسع ، الخصب ، المتشعب ، الدائم : الاداب والفنون ، نظم الحكم والادارة ، النفس والاجتماع ، المنطق والفلسفة .. الى آخره .. ولن ننسى ان نشير هنا الى البادرة الطيبة التي قدمها الاخ الاديب (محمد الحسناوي) في مجلة (حضارة الاسلام) عن (المكتبة الادبية الاسلامية) نرجو ان تعقبها محاولات اخرى ، في عصر ساد منطق (التنظيم) فيه ، كل صغيرة وكبيرة وامتد لكي يعمل في كل ميدان.

ملاحظة : صدر هذا الكتاب في سبعينيات القرن الماضي ، وقد نفذت في العقود التالية محاولات عديدة في مجال فهرسة المعطيات الاسلامية ، أبرزها جهود محي الدين عطية ، ونشرها المعهد العالمي للفكر الاسلامي في سياق اصداراته المعروفة.

القسم الاول

مقارنات

(١)

ان أية مقارنة اولية بين الاسلام والماركسية تقودنا الى الحقيقة التالية : انه بينما ينظر الاسلام الى قضية (العدل) نظرة شمولية ، تتجاوز نطاق العالم الى الكون كله ، ويرى ان (الظلم) المنصب على الانسان لا يقتصر على حجب حاجاته البيولوجية الأساسية فحسب ، بل يتجاوزها الى مظالم اخرى اصعب ، واعتى ، واشد تعقيدا ، منها : حجب حريته ، وكبت تعبيره الذاتي ، ووقف مطامحه ، وسحق تفرده ، واخراجه عن موقعه الصحيح في الخارطة الكونية ، وان المبادئ العادلة هي التي تستجيب لحاجات الناس جميعا وليس لاحداها فحسب .. وبينما ينظر الاسلام الى (الانسان) كسيد حر على الارض مستخلف فيها لاعمارها بملء ارادته ، والى الارض والطبيعة والعالم كأرضية مسخرة سننها ونواميسها وطاقاتها المذخورة للانسان كي يحقق هدفه ذاك ، نجد الماركسية كنتيجة لمنطلقها المادي الصرف تحصر مدى (العدل) في تنفيذ مطالب الانسان المادية فحسب ، وتغفل ، بل تقف حرصا منها على تنفيذ وحماية سمتها الطبقية ونزعتها الجماعية بمواجهة سائر المطالب الاخرى روحية ونفسية وفكرية ووجدانية واجتماعية .. كما انها تجعل الطبيعة ، بحركتها الدينامية الأبدية القائمة على تحاور النقيضين ، هي السيد المطلق ، وليس الانسان سوى (منفذ) غير حر ولا مريد لمشيئة هذا السيد .. وانه ايا كانت المرحلة الاجتماعية التي يمارس فيها علاقاته ، المرحلة المشاعية ، ام مرحلة الرق ، أم مرحلة الإقطاع ، ام الرأسمالية ، ام الاشتراكية فانه انما يفعل ذلك بامر من الطبيعة ووفق مقاييس صارمة من عبودية الانسان لسنن الطبيعة ، لا محيص له عنها أبداً.

وهذا الموقف المعاكس يمثل ، ولا ريب ، نزعة من اقسى النزعات الجبرية التي شهدها التاريخ ، تقف ومسالة (العدل) على طرفي نقيض ... وان كانت التحليلات (التبريرية) الجديدة للماركسية تريد ان تبين ان هذه الجبرية المتطورة وفق حركة الجدلية هي التي تدفع الماركسية الى مزيد من الايمان بفكرة التقدم والعمل الثوري الدائم للاسراع بالجدل الطبيعي المحتوم الى غايته ... وهذا التبرير يمثل ، ولا شك ، تناقضا في صميم المفهوم الماركسي للعلاقة بين الانسان والعالم ، تلك العلاقة التي صدر فيها حكم ماركس من ان الطبيعة ، لا الانسان ، هي التي تغير وتبدل في وسائل الانتاج ، فظروفه ، فمؤساته الحضارية الفوقية التي تنبثق عنه متشكلة به ، ومتلونة بلونه.

وبينما يسعى الاسلام الى تاكيد وتعزيز وحماية المؤسسات الاجتماعية الاصيلة كالاسرة، تلك التي ترتبط بالتجربة الاجتماعية اشد الارتباط ، والتي اثبت التاريخ ضرورتها وصلاحيتها لنمو المجتمعات نموا صحيا سليما ... نجد الماركسية تسعى الى تدميرها وتفكيكها والغائها ، فتدمر على المراة بهذا انثويتها وحقوقها العاطفية والنفسية والاجتماعية المترتبة على تكوينها ذاك، وتستل من الطفل كل اسباب تربيته الصحيحة ونموه الطبيعي السليم ، وتفقد الرجل اعز ما يطمح اليه من الاستقرار الى شريك في الحياة وسكن الى عطفه وحنانه ، ومن رغبة (سايكولوجية) متأصلة في تحدي الفناء بإنجاب ذرية مستقلة ، غير هجينة او مختلطة ، تحمل اسمه وحده[٢] ...

وبينما يسعى الاسلام الى تاكيد مفاهيم العدل الموضوعي الذي لا يميل ولا يتحيز ولا ينحرف باتجاه عاطفة او هوى او مصلحة او جماعة ما يرتبط بها الانسان المسؤول ارتباطا عرقيا او اجتماعيا او مذهبيا ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[٣] ﴿**...وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾[٤]. ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ...** ﴾[٥] ﴿**وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾[٦].

وبينما يلزم المسلمون برفض مبدأ (الغاية تبرر الواسطة) ، واعتماد القيم الاخلاقية والانسانية خلال حركتهم صوب اهدافهم ﴿**فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ**﴾[٧] ﴿**...فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾[٨] ... نجد الماركسية تلتزم عدلا نسبيا يميل مع الهوى، ويقيس الامور بمقياس طبقي محدود ، اذا جاز لنا ان نسمي ذلك عدلا ، وتضيع في

---

(٢) من المستحسن ان نشير هنا ما الى ما ذكرته صحيفة Wenhuipas الشيوعية الصينية التي تصدر في شنجاي ، أبان الثورة الثقافية ، في مقال كانون الاول سنة (١٩٦٧) عنوانه (مواجهة نقد الاسرة عمل ممتاز)، ذلك النقد الذي يوجه هجوما غير مباشر على ذلك الموقف المليء بالاحترام تجاه حياة الأسرة.

(٣) المائدة ، (آية ٨).

(٤) الأنعام ، (آية ١٥٢).

(٥) النساء ، (آية ٥٨).

(٦) الاعراف ، (آية ١٨١).

(٧) الشورى ، (آية ١٥).

(٨) النساء ، (آية ١٣٥).

غمار هذه النسبية المتغيرة ، والطبقية الضيقة ، صيحات المظلومين ومغتصبي الحقوق من كل جنس وفئة ولون ... كما نجد الماركسية تلتزم المبدأ الماكيا فللي المعروف (الغاية تبرر الواسطة) وتعتمد اشد الأساليب اللاأخلاقية للوصول الى اهدافها ... ومن منا لم يسمع قول لينين المشهور: (اكذب واكذب واكذب حتى يصدقك الناس) !! او يشهد مذابحهم ومجازرهم كتكتيك حزبي مرحلي في صراعهم اللاأخلاقي الطويل؟!.

وبينما يسعى الاسلام لاتاحة المجال امام الانسان للتعبير بحرية عن اكبر قدر ممكن من طاقاته وامكاناته ، على مستوى الروح والمادة ، الامر الذي لا يزيد في سرعة الإنجاز الحضاري فحسب ، بل يكسبه تنوعا وابداعا على شتى المستويات[٩] ، دون ان يعني ذلك اهمال الاسلام لمسألة (الوحدة) التي تجتمع عليها (الجماعة الاسلامية) في قيمها الاساسية وعلاقاتها الاجتماعية العريضة واهدافها المصيرية ... وكثيرة هي التأكيدات التي صدرت عن مفكرين شرقيين وغربيين على ان الحضارة التي ينشئها الاسلام هي حضارة (الوحدة والتنوع) ، حيث انه بدون هذا التوازن والتكامل والانسجام بين القطبين لن يكون هنالك عدل بالمفهوم الشامل الكلمة ... نجد الماركسية ترغم (الفرد) على ان (يتشكل) وفق القالب الاجتماعي ، وان يحجر على طاقاته وامكاناته لكي لا تتفجر الا على طريق (الطبقة الحاكمة) ... وان ينقلب في كثير من الاحيان ، على سمته الذاتية ، وتكوينه النفسي ، وبصمات أصابعه ، وأشواقه ومطامحه ، مادامت هذه جميعا لا تتناغم مع متطلبات النوتة الجماعية ذات اللحن الابدي الدوري المتكرر ، والمسيرة الجماعية المتشابهة الصماء التي تذكرنا بمجتمعات النحل والنمل التي لا تملك وراء (الانتاج والنظام) املا او مطمحا او هدفا بعيدا !! الامر الذي يدفع عددا كبيرا من ذوي الطاقات المبدعة والقدرات الخلاقة الى ان ينشقوا على هذا المجتمع ويرفضوا الانتماء الى قيمه ومبادئه ، انشقاقا يتمثل في عمليات هروب مستمرة خارج حدود التجربة ، او في الانتحار ...

وبينما يسعى الاسلام الى تاكيد (الوازع الذاتي) وحمايته وحثه على العمل والخلق بالجزاءات الدنيوية والاخروية ، وفرض رقابة داخلية غير قسرية تنبع من اعماقه بفعل (الايمان والتقوى) ولا تجيء من (السلطة) الا في آخر لحظة ، الامر الذي يجنبه الوقوع في مآسي الاثرة والانانية والخيانة والاستغلال ، وكل ما ينتج عنها من مساوئ اخلاقية تنعكس بالتالي على مدى الحضارة كله ... وبينما يدفع الاسلام انسانه لتقديم اكبر قدر ممكن من (الاتقان) في انجازه بدافع (الاحسان) ، الامر الذي يحمي المعطيات المختلفة من الغش والتزوير. نجد الماركسية – قبل ان تصطدم بعوائق الفطرة بعد محاولة تطبيقها – تسعى الى الغاء هذه النزعة

---

(٩) انظر بحث ملاحظات في المجتمع الإسلامي والتعبير الذاتي في كتاب (في النقد الإسلامي المعاصر) للمؤلف.

المتاصلة في الانسان ، كما يقرر علم النفس ، لانها لا تنسجم ونظريتها القائلة بتساوي ابناء الطبقة الواحدة المطلق امام حركة التاريخ. وهي من اجل ان تدفع هؤلاء الى (الانجاز) وتبعدهم عن ممارسة الاخلاقيات السالبة ، تستخدم معهم اقسى انواع القسر الخارجي والرقابة المباشرة (وليس كما يقال من ان تحقق المجتمع الشيوعي سيؤدي بالضرورة الى زوال كل الاخلاق السالبة التي ولدتها عهود البورجوازية من غش وسرقة وتزوير ورشوة ... الى آخره ، بدليل ما يحدث في البلدان الشيوعية من قبول واسع النطاق الرشوة ، ومن سرقات تكبر وتصغر حيثما امن السارق رقابة السلطة ، ومن متاجرة واستخدام للمواد المحرمة قانونيا ، كما حدث اخيرا ، وعلى نطاق واسع ، في بعض جمهوريات الاتحاد السوفيتي).

وبينما يمد الاسلام نطاق الجزاء تجاه السعي البشري الى يوم الحساب العادل الدقيق ، حيث لا يظلم الناس اعمالهم ، ولا يغبنون سعيهم ، وحيث يرى ويوزن كل جهد وكل نشاط ، صغيرا كان ام كبيرا ، وحيث لا يفلت من قبضة الحق مجرم او طاغ او ظالم تمكن من التخفي والفرار من العقاب في الارض ... او نفد عمره وهو في مركز القوة والجاه والسلطان فلم يستطع مضطهد او مظلوم ان يمسه بيد او لسان !! الامر الذي يلقي في اعماق كل انسان بقدر من الاطمئنان والاحساس البصير بالعدل الشامل الذي ان افلت من موازينه احد في الارض ، وما اكثر الذين يفلتون (والا فأين العقاب الارضي الذي نال ستالين وقد ساق الى المقصلة مئات بل الوفا من زهرة مواطنيه ؟) ، فإنهم سوف يرتطمون باعمالهم يوم الحساب ، ولن يكون هنالك فرار او خلاص ...

بينما يؤكد الاسلام هذا ، نجد الماركسية ، بنفيها ليوم الحساب ، تقصر جزاء الانسان على الارض وما اكثر ما يضيع هذا الجزاء ، وما اكثر ما يذهب الى غير اصحابه الحقيقيين او تحجبه يد تنطلق من مركز القوة لعزل الجزاء عن ألوف الناس المخلصين ، مبررة ذلك بالف اسلوب ، ليس اقلها رواجا ادعاء تآمرهم على الحزب والدولة !!.

وبينما يمد الاسلام نطاق ثورته الى كل المساحات التي يمارس فيها الظلم والخطأ والطغيان في الحياة البشرية ، أياً كان شكله ماديا او روحيا ، أجتماعيا ام أخلاقيا ، ظاهرا أم باطناً ، ويجاهد بشكل دائم كل سلطة جائرة ، وإرادة شاذة طاغية تسعى الى ان تجبر الناس على اعتناق ما لا يؤمنون به ، والتزام ما لا يريدونه ، وترغمهم على تغيير مواقفهم ومواقعهم الصحيحة المناسبة في خارطة العالم ، الى مواقف ومواقع قسرية ، منحرفة ... يجاهدها من اجل منح حرية الاعتقاد للإنسان ، وإتاحة المجال أمامه لإختيار الموقع الصحيح الذي ينسجم وطاقاته وقدرته وحصيلة مكوناته البيئية والوراثية.

وبينما يتسع مفهوم (الجهاد) ويمتد الى كل المستويات الفكرية والنفسية والجسدية لكي يغطي تطلعات الانسان في الكون تغطية دقيقة كاملة ومسؤولة ، ويعتمد قدرا من المرونة تجعله

لا يتجاوز (الكلمة) و(الجدل) و(الاقناع الحر) لكي يتحول الى القوة ويرفع السلاح ويستبيح الدم الا في اللحظة التي تصده فيها السلطات والزعامات والقيادات الجاهلية عن المضي في طريقه الى قلب الانسان وعقله وضميره.

نجد الماركسية تحصر نطاق الثورة على المستوى الطبقي ، وتسفك الدماء لمبررات مادية صرفة ، وتقطع اعناق الناس لأسباب (جزئية) تقوم على مجرد التفاوت في مقدار ما يملكه الانسان من مال ، او جهة النظر التي يعتنقها ... وهي خلال ذلك كله ترى انها غير حرة في عمليات القتل هذه ، انما هي مامورة بمنطق حركة التاريخ الجدلية السائرة دوما الى الأمام ... وهي خلال ذلك لا توسع نطاق نظرها لكي تشمل الانسان كله : جسدا وفكرا وعاطفة وروحا ووجدانا ، وتغطي طبيعة موقفه في الكون كانسان يختلف في تركيبه وممارساته عن سائر الخلائق ، وفي مطامحه التي تتجاوز حدود الطعام والشراب الى افاق بعيدة جديرة بمكانته في هذا العالم.

وبينما نجد الاسلام يسعى الى تحرير الانسان وجدانيا ، ومن اعمق اعماقه ، وينتزع كل بذور الخوف والتملق والخضوع من قلبه ، ويجعله يرفع راسه باعتزاز ، ويرفض الانحناء والتقرب لأية سلطة في الارض ، فلا يخضع الا لله ، ولا يعبد الا الله ، الامر الذي يمنحه احساسا ثوريا اصيلا ويدفعه دفعا ، وهو يحمل شعار ﴿لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ﴾ الى التحرك لمجاهدة كل القوى التي تقف بمواجهة (الحق) الذي ينتمي اليه ، ودونما رغب او رهب ...

وبينما نجد السلطة الاسلامية (الحقة) ترفض ، ابتداء ، اي تميز عن الجماهير ، وتستأصل من الاعماق أية خاطرة او ايحاء بتفوقها عليهم ، وتجاهد اية وسوسة بالاستعلاء وبالتالي دفع الناس الى ان يتخذوا المواقع السفلى ولا ينظرون الى زعاماتهم الا نظرة الاعجاب الوثني المذلّ ... فابو بكر (رضي الله عنه) يعلن في خطبه (.. أيها الناس ، اني قد وليت عليكم ولست بخيركم ..) وعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يعزل خالد بن الوليد (رضي الله عنه) خوفا من (افتتان) الناس به !! ذلك الافتتان الذي يبدأ هينا ميسورا ثم يتطور ويتضخم حتى يقف بمواجهة عقيدة التوحيد الخالصة في الاسلام كنقيض لها ... ويعلن عمر يوما عن اجتماع في مسجد المدينة ، فيصعد المنبر ، قبالة جماهير المسلمين ويقول (لقد رايتني من قبل ارعى لخالات لي من بني مخزوم ، واستعذب لهن الماء ، فيقبضنني القبضة من التمر أو الزبيب ..) ثم ينزل الخليفة ، فيسأله ابن عوف : ماذا اردت بهذا يا أمير المؤمنين ؟ فيجيبه : (ويحك يا ابن عوف ، خلوت الى نفسي فقالت لي : انت امير المؤمنين ، وليس بينك وبين الله احد ، فمن ذا احسن منك ؟ فأردت ان اعرفها قدرها !!).

وغيرها عشرات ، ومئات من مواقف الرفض الصارم لكل ما من شأنه ان يحدث تميزا بين المسؤولين والجماهير على أي مستوى كان ...

وكان الرسول (ﷺ) قد قال – من قبل – لرجل ناداه : (يا سيدنا وابن سيدنا) : (لا يستهوينكم الشيطان ، انا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، والله ما احب ان ترفعوني فوق منزلتي) : وقال ، وقد رأى رجلا يرتعد امامه : (هون عليك ، فاني لست ملكا انما انا ابن امرأة كانت تأكل القديد) !!

هذا بينما تتحول الماركسية بأتباعها ، اكثر فاكثر ، صوب نوع خطير من التعبد الوثني، والتخوف الذي يشل حرية الانسان وقدرته على الحركة والابداع ، ازاء مؤسسات الدولة والقيادات الحزبية ، وازاء (الزعيم) الذي يبلغ من اعجاب الناس العاديين في المجتمعات الشيوعية به ، وتخوفهم من سلطته الهائلة الظاهرة والخفية ، ويده الباطشة التي تصل كل من يلوك كلمة او يمارس همسة ضده ، بما يمتلكه من اجهزة بوليسية رهيبة لم يشهد لها التاريخ مثيلا في تنظيمها ودقتها وسريتها وامتدادها وآلاتها المخيفة وأساليبها في الكشف عن المعارضين ، وفي التوغل الى اعماق سرائرهم لدفعهم الى عرضها بكل دقائقها ومنحنياتها امام المحققين ... وبما تمارسه اجهزة الاعلام من مبالغة وتمجيد وتهويل ... يبلغ هذا كله بالناس العاديين وبالجماهير عامة الى حالة من التعبد والتقديس لزعمائهم تفوق في خطورتها كل تجارب الوثنيات القديمة والكهانات الجائرة والسلطات القيصرية والكسروية الظالمة المنقرضة (كما حدث ويحدث في تجارب الستالينية والماوية) ، الامر الذي يقتل في اعماق الانسان الشيوعي كل احساس ثوري حقيقي ، وينتزع من نفسه آخر أسلحته الإنسانية في الرفض والمعارضة والتصدي ، كما دفع زعماء الاتحاد السوفيتي، في صراعهم مع الصين ، الى اتهام ماوتسي تونغ بالبورجوازية والترفع على الجماهير، ردا على اتهامه اياهم بالإمبريالية !!

(٢)

وليست هذه المواقف الماركسية جميعا من العدل ، بمفهومه الشامل ، في شيء .. فليس من العدل ان تقلص دوافع الانسان وحاجاته ونوازعه ومناشطه الى حدها الادنى الذي يستوي فيه مع الحيوان ، متمثلة بالطعام والكساء والجنس ، وتبقى الحاجات الاخرى مضطهدة مراقبة ، او غير مشبعة على الاقل ... وليس من العدل ان يحجر على حرية الانسان وحركته الذاتية باعتبار ان هذا خروج على سنن الطبيعة القائلة بالتساوي المطلق امام حركة التاريخ ... وليس من العدل اذلال الانسان وذلك باقناعه جدليا بان علاقته بالطبيعة ليست علاقة حرية وفعل اختياري وانما علاقة خضوع واندماج وتقبل ... وليس من العدل ان تكبت طاقات الانسان

الخلاقة وتقسر على ان تتشكل وفق ما يراد لها لا ما تريده هي ... وليس من العدل ان يدمر على الناس وازعهم الذاتي بحرمانهم من أي جزاء مناسب يكافئ معطيات هذا الوازع في منحنياته المختلفة ... وليس من العدل ان يحكم على الاسرة كمؤسسة اجتماعية اصيلة ، بانها مظهر عارض من مظاهر وانعكاسات البورجوازية البائدة ، وانها يجب ان تزول ، وبذلك تلحق باطراف هذه المؤسسة : الرجل والمرأة والطفل ، خسائر فادحة لم يشهد تاريخ الاجتماع لها مثيلا ... وليس من العدل ان يحدد الجزاء بفرصة الحياة الدنيا القصيرة المحدودة ، ذلك الجزاء الذي قد يموت اصحابه الحقيقيون ، ويأكلهم الدود ، قبل ان يثبت حقهم النهائي فيما كانوا يستحقونه من جزاء حرموه حتى في اشد الدول عدلا ومساواة ... وليس من العدل ان تزيف مقاييس العدل الموضوعي وتتحول الى معايير نسبية تميل مع الهوى والمصلحة ، او ان يعتمد اسلوب لا تقره الاخلاقية البشرية وبداهاتها الاساسية في ميادين العمل المختلفة .. وليس من العدل ان تضيق دائرة (الثورة) وتضغط لكي توجه توجيها طبقيا فحسب ، لا يتجاوز نطاق الحاجات الاساسية المادية للإنسان ، بينما هنالك عشرات من الحاجات الاخرى تنتظر من يثور من اجلها و يمنحها حقها المشروع ... كما انه ليس من العدل ان تمارس بسبب الرعب والقسر والبوليسية انواع اخطر من التعبد الوثني الذي يحول زعماء (الشيوعية) الى الهة في الأرض ، ويمسخ جماهير الناس الى قطعان من العبيد فيما يمكن ان نطلق عليه : الرق الجماعي الجديد !!

فكل المواقف (النقيضة) التي يقفها الاسلام اذن من هذه المسائل الاساسية في العلاقات بين الانسان والمجتمع والسلطة والطبيعة والتاريخ ، انما هي (المواقف) التي تنسجم والمفهوم الشامل (للعدل) ، لأنها تضع الانسان في موضعه ، وتقدره حق قدره بان تمنحه مع المساواة (الحرية) التي بدونها لن يكون إنسانا !!.

(٣)

ولكن هل يكون الاسلام ، بتغطيته الشاملة للعدل ، قد اهمل او انه لم يول اهتماماً كافيا على الأقل لمسألة العدل في اطارها الاقتصادي ؟! وهل من المحتوم ، اذا ما التزم مذهب ما جانبا من جوانب الحياة البشرية وصب كل جهوده عليه ان يغفل او يهمل الجوانب الاخرى ؟ هل من الضروري ان يترك الاسلام المسألة الاجتماعية في اطارها الاقتصادي (للظروف) تتكفل بحلها وتشكيلها ، ما دام قد منح البشرية هذا القدر من العدل بمفهومه الكوني الشامل ؟ تماما كما كان محتوم على الماركسية ان تضحي بجوانب العدل الشاملة ، بما فيها الحرية ، وموقف الانسان المسؤول في الكون ، ما دامت قد حققت المساواة شبه التامة في عالم العلاقات الاجتماعية الاقتصادية ؟.

الجواب : كلا !! ليس هذا الخلل والجنوح في (الموقف) بالامر المحتوم .. ومن اين تجيء هذه الحتمية بالنسبة لدين لا يؤمن بالحتميات ؟! ان الاسلام ، وقد برمج العدل في افاقه الشاملة ، رسم في الوقت نفسه خططه ومشاريعه لتنفيذ وحماية الجانب الاهم والالصق بالحياة اليومية من العدل ، ذلك هو العدل الاجتماعي في مرتكزيه الأساسيين : الكفاية وتكافؤ الفرص ، ونحن نستطيع ان نحظى بحشد كبير من الاراء والنصوص والقيم والمواقف التي طرحها القران والسنة واجتهادات الصحابة والتابعين ومن تلاهم من الفقهاء والمفكرين ، او التي شهد التاريخ الاسلامي نماذج ووقائع منها لم تجيء جزافا ، ولا يمكن لباحث جاد ان يجردها من دلالاتها الحقيقية ... ان هذه (النصوص) و(المواقف) ، نظرية وتاريخية ، يمكن ، بمجرد عرضها وفق نسق معين ، ان تجيبنا على هذا السؤال وان تقدم لنا الكثير من القيم والدلالات والقناعات في مسألة تعد اليوم في طليعة المسائل الفكرية والحيوية.

وسأكتفي في هذا البحث الموجز ، بعرض نماذج من هذه (النصوص) و (المواقف) مقتصرة على القرآن والسنة ، وفق نسق معين يبين لنا بنفسه ، كم هو بعيد عميق اهتمام الاسلام بالمسألة الاجتماعية ، وكم هي واسعة شاملة اصيلة حاسمة مواقفه ازاء تداول الثروة وتوزيعها ، وكم هي اكيدة بيّنة ارادته في تحقيق (التوازن) بين الناس ، وفي الا يكون (المال) (دولة بين الاغنياء).

(٤)

ان اقتصار هذا البحث على الجانب (الجماعي) في الاسلام ، وعدم الاشارة الا عرضا الى (المسألة الفردية) و(حق الفرد في التملك) كجزء اساسي من حقوقه كانسان ، لا يعني ابدا رفض هذا (الحق) او انكاره او تضعيفه على اقل تقدير ، ولن يملك احد كائنا من كان ان يمارس هذا التزييف ازاء مبادئ الاسلام الذي اكد حقوق الفرد وعلى رأسها (حق التملك) الذي هو حق اساسي اصيل يكاد يصل حد القدسية ، لانه ، كما هو بديهي نفسيا واجتماعيا وتاريخيا، امتداد لشيء اصيل في الانسان ذاته ، لفطرته المقدسة . ومن منا لم يسمع حديث الرسول (ﷺ) (... ومن مات دون ماله فهو شهيد) ؟ وحديثه (لا يحل لامرئ من اخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس منه) ؟

ان انتهاب مال الآخرين ، بدون وجه حق ، هو مواجهة لكرامة الانسان ، وانتهاك لاحد حقوقه الاساسية الثابتة. وكما ان الجائع في الاسلام له ان يقاتل الذين حرموه الطعام فان قتل هو قتل شهيدا وان اطيح بمجوعه ذهب الاخير الى لعنة الله ، كما يقول (ابن حزم) وكما

سنعرض لـه فيما بعد ، فانـه بالمقابل من دافع بالحق عن ماله (الحلال) ومات دونه مات شهيدا ، فان أطيح بالذي يحاول اغتصاب حقه المشروع ذهب بالضرورة الى لعنة الله !!.

تلك هي المعادلة الرياضية الابدية في الاسلام ، انه في كل مواقفه يحدث هذا التوازن المنفرد العجيب الذي لا يميل يمينا ولا يسارا والذي يقف دائما في نقطة (الوسط) ... هذه النقطة العادلة ، الايجابية ، التي حدثنا عنها القران الكريم وهو يصدر حكمه النهائي على دور المسلمين في العالم **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**.

والاسلام ، في هذه المسالة ، يتخذ ذات الموقف بين (الانا) و(الآخرين) وهذه هي السمة الحاسمة التي تجعل المسألة الاجتماعية في الاسلام تبعد كلية عن ان تكون رأسمالية او مشاعية، واذا كنا في هذا البحث نتناول احصائيا وتحليليا اعتمادا على منبعي الاسلام : القران والسنة ، رفضه القاطع للموقف الاول (الموقف الرأسمالي) ، فاننا لا بد وان نشير ، من اجل الا يثور أي التباس ، الى رفضه للموقف الثاني الذي يلغي حق الملكية فيما يلغيه من ابعاد الذات البشرية المتفردة ، ويدمج الافراد جميعا ، على تغايرهم وتمايزهم في وحدة قسرية صماء.

ولقد تبين بالنسبة للمسألة الاجتماعية التي نعالجها ، بالمقاييس العملية التجريبية وبالادلة التاريخية المتزايدة ، فشل هذا (الموقف) وتراجعه اكثر فأكثر صوب اقرار حق الفرد في التملك ، ذلك الذي ينبثق عن وازع متأصل في نفسه تأصل الشعيرات والشرايين ، وانه بدون منح هذا الحق ، فان هذا الوازع سيرد على (الفعل الخاطئ) بفعل معاكس خاطئ هو الاخر ، فيضرب في سورة من الغضب الباطني عن التفجر والعطاء والإبداع. ونحن هنا نكتفي باشارات موجزة فحسب كيلا نخرج عن الموضوع ، ولكي نلتقي مرة اخرى مع عدالة الموقف الاسلامي على كل المستويات :

١. أشارت إحدى الإحصائيات أن نسبة ٩٨% من مزارع البطاطا في الاتحاد السوفيتي ملك للدولة وان ٢% فقط تمثل ملكية خاصة ، وان نسبة انتاج هذه الاثنتين في المائة بلغت ٥٠% من انتاج الاتحاد السوفيتي كله من هذا الغذاء.
٢. أشار تقرير إحصائي آخر إلى انه درست نسبة إنتاج عدد معين من مهندسي الاتحاد السوفيتي وقورن بنسبة انتاج نفس العدد في احدى دول الغرب الرأسمالي فتبين انه لا يزيد على النصف ، الامر الذي دفع مؤسسات الاتحاد السوفيتي الى ان تزيد من اعتمادها على الوازع الذاتي للمهندس السوفيتي من اجل ان يعطي اكثر !!

٣. ليس اجراء لينين الشهير عام (١٩٢٤م) ، بعد اقل من سبع سنوات على قيام الثورة الشيوعية والذي اعاد فيه نظام تمليك الاراضي ، بعد التدهور الشامل الذي شهده الاتحاد السوفيتي من جراء التأميم الكامل لوسائل الانتاج ، ليس هذا الاجراء الاول والاخير بهذا الصدد.

٤. عندما اتضح استحالة تحقيق الشعار الماركسي (من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته) في تجربة الماركسية في روسيا وشرقي اوربا استحدث النظام الشيوعي ما سماه بالحافز الفردي في الانتاج ، وهو نسبة في زيادة اجر العامل تعطي له سنويا حسب زيادته في الإنتاج المقنن للمستوى المتوسط للعامل[١٠] . كما ان بعض دول شرقي اوربا اعادت السماح لمواطنيها بتملك الدور والسيارات وبسلّم نصيبهم من الميراث !!.

٥. تحدث سكرتير الحزب الشيوعي الروماني بمناسبة ما سمي بالهجوم لمدة اربعة عشر يوما على نظام الاقتصاد في رومانيا وعدم كفايته ، كما نقلت حديثه مجلة الاكونومست البريطانية في عددها الصادر في (٢١ كانون الثاني سنة ١٩٦٧م) (ص٢٢١) تحت عنوان : (التفوّق في الاقتصاد الاشتراكي) " لا يمكن ان نتحدث عن تفوّق الاشتراكية عن الرأسمالية طالما ان بعض الدول الرأسمالية المتقدمة تنتج ارخص انواع السلع وأجودها. اننا عندئذ غير قادرين على ان نبرهن على هذا التفوق. ان ضعف نظام الاقتصاد في رومانيا يختفي وراء النسب النظرية والافتراضية في التخطيط في زيادة النمو (الاحصائيات التخطيطية). وقد بدأ الرومانيون يدركون الان ان هذا الضعف (أ) كما هو في النوع وفي نفقات الانتاج (ب) هو ايضا في كميته. وقد ابدى سكرتير عام الحزب الشيوعي في رومانيا في اجتماع (٢٣ كانون الاول سنة ١٩٦٦) للجنة المركزية ، عدة ملاحظات لا يمكن معها ، كما يقول ، ان تتحمل رومانيا طويلا ، وتقف بعيدا عن الاصلاحات الاقتصادية التي تجري الان في دول شرق اوربا. وليس المجال ان تعلن المشروعات القيادية للمصانع التي لها شبه استقلال ، وليس كذلك هو مجال المدح والثناء للتجارب الاقتصادية في الدول الاشتراكية ... إنما هو مجال الكلمات القاسية التي تهز الرسميين في الحزب من سباتهم ، ويعلن : ان رومانيا لم تزل بلدا متخلفا ، ويذكر في هذا الصدد ان صنوف الالات التي صدرتها رومانيا في سنة (١٩٦٤م) كان يساوي الطن منها ٤٢٠ جنيها بالقياس الى ما يساويه في بلغاريا من ٥٠٠ جنيه وفي فرنسا من ٩٦٨ جنيه وفي سويسرا من ١.٧٢٤ جنيه. وان الفلاحين الذين يكونون نسبة اكثر من نصف السكان العاملين يعملون فحسب ثلث الوقت المخصص للعمل. ويقول : ان التخلف كان السبب في ارتفاع الاسعار للانتاج ارتفاعا ظاهرا تقريبا الى ما يعادل النصف في البلاد المتقدمة اذا نظرنا الى الاقتصاد ككل. وكان السبب كذلك في ان انتاج العامل في

---

(١٠) محمد البهي : تهافت الفكر المادي التاريخي ، ص٥٢-٥٣.

رومانيا اقل بمقدار النصف او الثلاثة اضعاف عن العامل في ايطاليا وفرنسا والمانيا الغربية. ان الايام عديدة ، تلك التي يطمئن فيها العامل الى الاحتفاظ بوظيفته ، ومع ذلك لا يسهم في انتاج الاقتصاد الا قليلا . هل يمكننا ان نحول المصانع الى مؤسسات خيرية ؟ ان الفا وثلاثمائة وسبعين سلعة من الانتاج اسفرت عن خسارة في العام الماضي بما يقرب من مائتين واربعين مليونا من الجنيهات الاسترلينية في عام (١٩٦٦م) بينما يبدو الوضع سيئا ايضا في عام (١٩٦٧م) حيث العجز في الميزانية الوطنية يقدر بحوالي مائتين وخمسة عشر مليونا من الجنيهات الاسترلينية "[١١].

٦. يعرض الدكتور مصطفى السباعي في مقدمة كتابه (اشتراكية الاسلام) صورا مما شاهده خلال زيارته للاتحاد السوفيتي عام (١٩٥٧م) " لقد رأينا بام اعيننا ان الاتحاد السوفيتي ، وهي الدولة التي تمثل اقصى اليسار في المذاهب الاشتراكية ، يتفاوت فيها الناس في مستوى المعيشة ، وفي الدخل الشخصي ، وفي الادخار ، وفي التمتع بمتطلبات الحياة . فمن عامل دخله الشهري ٥٠٠ روبل في الشهر الى رئيس جامعة راتبه الشهري ١٥٠٠٠ روبل في الشهر ، ومن مواطن يسكن غرفة صغيرة في بناء متواضع الى وزير او موظف كبير او حزبي بارز يسكن قصرا فخما وله سيارة فخمة !!! بل رأينا بأعيننا في قلب موسكو الشحاذين يقفون على باب مسجد موسكو يمدون أيديهم بالسؤال ويعطيهم الناس ما يجودون به عليهم ! وقد التقطت بنفسي صورا لهذا المنظر لا تزال محفوظة لدي. ولقد قال لي احد رجالات الاتحاد السوفيتي انهم يزعمون ان الشيوعية تحرم الملكية الشخصية ، وها انا اريك دفتري الخاص بتوفيري المدخر في البنك. فاذا رصيده المسجل باسمه يزيد على سبعة الاف روبل. فسألته هل هذا الادخار مما يسمح به النظام الشيوعي كما وضعه كارل ماركس ؟ وبعبارة اخرى : هل انتم تطبقون النظام الشيوعي ؟ ام انتم تطبقون نظاما اشتراكيا ؟ فتبسم وقال : نحن لا نطبق الشيوعية كما هي !! ".

ذلك اذن هو موقف الاسلام من مسألة التملك والوازع الذاتي في اتجاهه العمقي (العمودي) المتوغل في نفس كل إنسان . وأما الاتجاه الافقي للمسألة والذي يقوم على (ضرورة) التفاوت (النسبي) في مقدار التملك كماً ونوعاً فانه ينبثق هو الاخر عن قاعدتين اساسيتين : اولاهما الخلاف المحتوم والتمايز الذاتي وتباين الطاقات بين انسان واخر كنتيجة للمؤثرات البيئية والوراثية المتغيرة المتنوعة ، ومن ثم كان بعض الناس اكثر مقدرة على (الكسب) من الاخرين (مع ملاحظة ان الاسلام يرفض ابتداء اعتماد الاساليب غير المشروعة في عملية الكسب ، والتي تتعارض مع مبدئه الاساسي في تكافؤ الفرص والكسب الحلال). وثانية القاعدتين ، لهذا

---

(١١) المرجع السابق ، هامش ١ ، ص ٥٢-٥٣.

الاعتماد الافقي للمسألة ، يبدو بوضوح في الآية القرانية ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾[١٢].

وهي قاعدة اجتماعية تقوم على تدرج الناس وفق سلم اجتماعي يتيح لهم التوصل في فاعلياتهم الى حالة التعاون والتكامل والابداع. وهذه القاعدة كأية قضية في واقع العلاقات البشرية يمكن ان تكون سلاحا ذا حدين يبرز حدّه السالب في تحول هذا التدرج من حالته الايجابية المرنة القائمة على التعاون والتكامل والابداع الى حالة من التنافر والتخاصم والصراع والتحاقد بسبب تحول التدرج تحولا نوعيا وكميا يقود الى الطبقية المقيتة التي لا تقتصر مقاييسها على ميادين المال والاقتصاد ، وانما تتعداها الى كل المواقع الاجتماعية فترفع الى مرتبة النيل والشرف والسلطة اولئك الذين يملكون ، وتنزل بالذين لا يملكون الى ادنى المراتب الاجتماعية فتحرمهم وتستغلهم ، وتحجب عنهم حقهم المشروع في التعبير عن قدراتهم وفق مبدأ تكافؤ الفرص ، وهذه الحالة هي التي يرفضها الاسلام جذريا ، مما هو مدار بحثنا هذا ، وهي التي تحذر منها ، بشكل غير مباشر ، الآية الكريمة ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾[١٣] وهي الحالة التي تقابل ، فيما يتمخض عنها من مساوئ ، حالة المساواة القسرية المطلقة القائمة – هي الاخرى – على (حجب) الحق المشروع في التعبير عن الطاقات البشرية ومكافأة الابداع المتأتي عنها بما يوازي حجمه كماً ونوعاً ... كما تقوم على تدمير مبدأ تكافؤ الفرص. ومن ثم نجد انفسنا مرة أخرى ، ازاء خطأ يمارس بحق الانسان ، فردا وجماعة ، في منهاجي التعامل الرأسمالي والشيوعي على السواء. ونجد انفسنا مرة اخرى كذلك امام (وسطية) الموقف الاسلامي وتعامله العادل مع (المسألة) الاجتماعية !!.

(٥)

تبقى بعد ذلك ، المسألة الاجتماعية في الإسلام ، في إمتداديها التاريخي والفقهي اللذين يلتقيان حينا لكي يخططا وينفذا على ضوء القرآن والسنة كما حدث في عصر الراشدين وفي محاولتي عمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود الانقلابية ، وفي فترات عديدة ، ويفترقان احيانا لكي ينمو الفقه ويتطور في اطارات نظرية تلتزم حدود القرآن والسنة ومواقف الصحابة والتابعين ، اطارات قدمت لتاريخ التشريع البشري والمذاهب الاقتصادية ، حصيلة ضخمة من الاراء

---

(١٢) الزخرف ، (آية ٣٢).

(١٣) الانعام ، (آية ١٦٥).

والاتجاهات والنظم النظرية ... بينما يأخذ الواقع التاريخي مجرى اخر يقرب من مفاهيم الاسلام الاجتماعية حينا ويبعد احيانا ، ويشذ ويصطدم ويأخذ موقفا عكسيا في احيان ثالثة !!

وهذه المسألة ، في جوانبها تلك ، في امس الحاجة الى ابحاث علمية رصينة ، تعتمد منهجا موضوعيا يصل الى الحقائق المجردة بأكبر قدر من الصدق والامانة ، في عصر طغت فيه الاكاذيب باسم العلم والمنهجية ، وراحت موجة اصحاب التفسير المادي للتاريخ ، بعد تضاؤل حدة الموجات الاستشراقية الصليبية الاولى ، تطلع على الناس بركام من الابحاث والمؤلفات تريد ان تفسر فيها تاريخنا كله ، وبضمنه المسألة الاجتماعية ، على ان تخضع لمخططاتها (القبلية) ولمنهجها المفصل سلفا على يدي ماركس وانكلز ، فتقبل من وقائع هذا التاريخ ومعطياته ما ينسجم مع المقياس المادي ، وترفض وتزيف وتزور كل ما يند وينأى عن هذا المقياس ، وهو اسلوب يمارس في انتقائه اللاموضوعي وفي تزييفه وتحويره ، منهجا خاطئا اشد في بعده عن روح العلم ومسؤولية البحث الجاد من اكثر المناهج الاستشراقية كراهية للاسلام وحقدا على تاريخه.

ومما يزيد الامر سوء ان يتكئ عدد من صغار الباحثين والأكاديميين الجدد ، من الذين لا يملكون وعيا تاريخيا اصيلا ، ولا نفساً طويلا في البحث ، على النظرية المادية في تفسير التاريخ ويسعون الى تغطية عجزهم باجراء مطابقات ساذجة ومضحكة بين بعض العينات المختارة من تاريخنا وبين جانب ما من جوانب التفسير المادي للتاريخ ، فيقودهم هذا الى نتائج خاطئة واحكام جائرة ما انزل الله بها من سلطان !!.

ان احدى المنطلقات الاساسية لمعالجة المسألة الاجتماعية في الاسلام هو ان نفرق ، بأمانة وعلمية ، بين مراحل من تاريخنا نفذت فيها قيم الاسلام وبرامجه ، بما فيها تلك التي تتعلق بالمسألة التي بين ايدينا ، وبين مراحل اخرى عوملت فيها الوقائع الجارية والتجارب اليومية بمبادئ وقيم وبرامج ومواقف ، تبعد بدرجة او اخرى عن روح الاسلام وبداهات موقفه. بل انها تطرفت في احيان كثيرة ، فاعتمدت أساليب وممارسات وقفت من الاسلام وبرامجه موقفا متضادا في أساسه.

وفرق كبير حاسم بين خليفة او امير اموي او عباسي ، تطربه ابيات من الشعر قيلت في مديحه ، كذبا وتملقا ورياء ، فيقول مشيرا لصاحبها : اعطوه الفي دينار ... والناس في الخارج يتضورون جوعا ... وبين خليفة كعمر بن عبد العزيز على سبيل المثال وهو يقفل الابواب بوجوه الشعراء المرتزقة ، ويعكف مع كبار موظفيه وفقهائه لدراسة أنجع الأساليب في تنفيذ الضمان الاجتماعي وفي ايصال الحقوق الى اصحابها أيا كانوا ... في اشباع الجائعين ومطاردة ظاهرة الفقر والحرمان في كل مكان ... فرق بين ان تسرق مائة او مائتان من اموال الامة لكي تمنح لقائد او جندي يتفوق بمنطق القوة على خصوم الخلافة الثائرين ، وبين ان

تعطي الدولة من مالها هذه المائة او المائتين لكل من يقطع المسافات الطوال من المواطنين لكي يجيء الى قاعدة الخلافة ويقول كلمة حق او يرفع مظلمة ... فرق بين ان يلبس الخليفة او الامير الخز والديباج والعمائم المطعمة بالذهب والاخفاف المنقوشة بأسلاك الفضة ، وتفرش امامه ، في ليالي المتعة والغناء ، الوان من اطعمة واشربة ، تند حتى القواميس عن استيعاب تسمياتها ، والناس في الخارج لا يجدون ما يلبسون ولا يعثرون على ما يأكلون ... وبين خليفة يلبس قميصا مرقوعا باربعة دراهم او خمسة ، ويتضور واهله جوعا ، من اجل ان تلبس وتشبع جماهير امته ... فرق بين من يأكل طعام الامارة ويطعم الناس الخل والزيت وبين من يأكل الخل والزيت ويطعم الناس طعام الامارة !! ولو شئنا ان نعدد المواقف المتضادة المتباينة في تاريخنا لعجزنا عن الاستقصاء[١٤] .. وحرام على باحث جاد ، ان يمزج هذا بذاك لكي يطلع على الناس بجديد يقول فيه ان تاريخ المسألة الاجتماعية في الاسلام لا يعدو ان يكون سلطة (بورجوازية) تستغل ، وجماهير (كادحة) تستغل !!.

المهم ان المسألة الاجتماعية في الاسلام ، بعد عصر الرسول (ﷺ) ، في امس الحاجة الى مزيد من الدراسات هي الاخرى سواء في امتداديها التاريخي الواقعي ام النظري الفقهي ، وهي مساحة ما زالت بكرا في ابحاثنا ، واذا كان الكثيرون قد تناولوها بروح استشراقية صليبية ، أو ماركسية مادية ، ومارسوا ازاءها التزوير والتحريف ، فإنها ما زالت تنتظر الايدي (العلمية) (الأمينة) لكي تدلي بدلوها فيها. والا ، فهل درست لحد الان ، دراسة إسلامية أصيلة ، حركات اجتماعية كثورات الزنج والزط والقرامطة على سبيل المثال او حللت المواقف الاجتماعية للسلطات الاسلامية في تاريخنا تحليلا يضع – من زاوية اسلامية منهجية أصيلة – النقاط على الحروف ، ويبين كم هو خطير ارتباط الترف والغنى ببعض هذه السلطات ، ومسيره بها صوب التحلل والدمار ... اللهم الا ما فعله ابن خلدون في مقدمته الشهيرة بعلاجه المسألة الاخيرة وفق مقاييس اسلامية في كثير من الاحيان ؟.

ان تاريخا اجتماعيا تبرز فيه مواقف وتعلن كلمات كهذه التي قالها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) " ما من رجل الا وله في هذا المال حق ، الرجل وحاجته .. والرجل وبلاؤه " " اني حريص على الا ادع حاجة الا سددتها ، ما اتسع بعضنا لبعض ، فاذا عجزنا تأسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف " " لو استقبلت من امري ما استدبرت لأخذت فضول الاغنياء فرددتها على الفقراء " ... وهذه التي قالها علي (رضي الله عنه) " ان الله فرض على الاغنياء في اموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم ، فان جاعوا او عروا وجهدوا فبمنع الاغنياء" .

---

(١٤) انظر : على سبيل المثال كتاب (ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز) وكتابي (دراسة في السيرة) و(نور الدين محمود) للمؤلف.

ان تاريخنا اجتماعيا كهذا لهو بأمس الحاجة الى ابحاث اصيلة تستلهم روح هذا التاريخ وخطوطه العريضة ... وما كانت دراستي عن عمر بن عبد العزيز الا محاولة اولية في هذا الميدان الفسيح ، وليس عدم التوسع في المسألة في بحث كهذا الذي يجده القارئ بين يديه الا لان هذه الصفحات تقتصر على تتبع ملامح المسألة في القرآن والسنة فحسب ، في محاولة من ضمن عشرات المحاولات التي قام بها غيري ، تحتمل كرفيقاتها الخطأ والصواب ... فليس الا عند ماركس وتلامذته جهدا علميا خالصا وتنبؤات مستقبلية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها !!.

القسم الثاني
مبادئ في كتاب الله

إن الإسلام ، في قرآنه وسنة نبيه ، يطرح قواعد عامة وخطوطا عريضة يريد بها ان يشكل الأرضية الصلبة التي تتحرك عليها العلاقات الاجتماعية والتي تمتد جذورها في أعماق النفس وبنية العالم وفي صميم النظرة الى الكون .. وصحيح انه يطرح في الوقت نفسه تفاصيل وجزئيات عن قضايا يومية ومسائل اجتماعية بالذات ، ويلامسها ملامسة تامة ، الا ان الاطار الكبير ، والرؤية الشمولية التي يرسمها الإسلام لموقف الإنسان في العالم ، وطبيعة دوره فيه ، والغاية التي خلق لها ، والمصير الذي يسعى للتحقّق به من خلال ممارسته الواقعية ، هي التي تهمّنا ونحن نرسم بعض آفاق العدل الاجتماعي كما جاء بها هذا (الدين القيم). ولنبدأ بمسألتي (الترف) و(الغنى الفاحش) كظاهرتين نقيضتين لفكرة العدل الاجتماعي.

ذلك انه اذا اختفى العدل وانعدم التوازن ظهر الغنى الفاحش والترف ، واذا كان القران الكريم قد عالج (الترف) – والغنى الفاحش بطبيعة الحال – كمسألة هدامة في كيان أي مجتمع ، تنبثق عنها دوما مواقف سالبة رجعية ، وإجرامية كافرة ، فمعنى هذا انه يريد مجتمعاً متوازناً كبديل لحتمية ظهور الترف في (حالة اجتماعية غير متوازنة) ... ولقد مد القران تحليله للظاهرة الى اعماق النفس وامداء العلاقات الاجتماعية مادية وروحية وفكرية واخلاقية وتقدم بها صعدا صوب الآفاق البعيدة والتحليلات الشاملة لكي ما يلبث ان يلقي أضواءه ويقول كلمته في حجم الدور الذي يلعبه الترف ازاء مسيرة الحضارات ونموها وعوامل سقوطها ودمارها.

ان (الترف) ممارسة (مدمرة) سواء للجماعة التي تسكت عليها وتغض عنها الطرف ، وتغلو في انهزاميتها فتتملق وتتقرب وتداهن ، او للمترفين أنفسهم الذين يعمي الثراء الفاحش ، وما ينبثق عنه من ممارسة مرضية متضخمة مبالغ فيها ، بصائرهم ، ويطمس على ارواحهم ويسحق كل احساس اخلاقي اصيل في نفوسهم ، ويحجب عنهم وهذا هو الاهم والاخطر كل رؤية حقيقية لدور الانسان في الدنيا ، وموقفه في الكون ، وطبيعة العلاقات المتبادلة بين عالمي الحضور والغياب ، والمادة والروح ، والطبيعة وما وراء الطبيعة ، والارض والسماء فبما اكسب الترف نفوسهم وحسهم من خشونة وثقل وغلاظة ، ثقلوا فانقطعوا عن كل رؤية بصيرة او ايمان جاد يتجاوز بهم عالم الحضور الى الغياب ، والمادة الى الروح ، والطبيعة الى ما ورائها ، والارض الى السماء ، والعلاقات المنفعية الى المواقع الاخلاقية التي يتميز بها بنو آدم عن عالم النمل والنحل والحيوان. وهذا التحليل القرآني يقف في تضاد كامل مع الفرضية الماركسية التي تقول ان الدين لا يعدو ان يكون جزء من الاخلاقيات والممارسات البورجوازية.

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا

﴿خَاسِرُونَ﴾[١٥]. فها هي كلمات الله تبين لنا البعد الحقيقي والاهم لما يؤول اليه الترف : انكار النبوات والقيم الغيبية ، وكفر بها ، وتكذيب بلقاء الاخرة ، وعدم مقدرة على استخدام مقاييس دقيقة في وزن الحوادث والدعوات والاشياء ، غير مقاييس الطعام والشراب ... ثم حكم وقتي خاطئ سريع ، بعد هذا ، يرى في أن الالتزام بأي نداء يخرج الإنسان عن دائرة علاقاته المنفعية المباشرة ، ويصده عن الانغمار في الطعام والشراب ، انما هي صفقة خاسرة ، تماما وفق المنطق الذي يعتمده التجار !!

وما كان للمترفين ، حماية لمواقعهم تلك ، إلاّ ان يحرنوا ، ويتمنوا على حركة التاريخ المحتمة ان تحرن معهم وتسكن. وهم في مواجهة اية دعوة جديدة ، تدعو الانسان للتقدم خطوات الى الامام يرفعون شعارات (السكون) و(الرجوع) الى الوراء خوفا من ان تجرفهم الدعوة بعيدا عن أماكنهم. وفي اكثر من موضع يحدثنا القرآن عن رجعية هؤلاء المترفين : ﴿**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ(٢٢)وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**﴾[١٦]. وتكون الغلبة دوما لكلمة الله ﴿**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾[١٧].

وفي آيات أخرى ينقلنا القرآن الكريم بسرعة ، كشانه في كثير من الاحيان ، الى يوم الحساب ليبين لنا المصير الذي سيؤول اليه المترفون ، وليدينهم بالجرم الكبير الذي كانوا يمارسونه دوما في مسيرة الحياة الدنيا ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٣٣)وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(٣٤)وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٣٥)قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(٣٦)وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾[١٨] فكأن كلمة الكفر معلقة وقد أخلدوا بالترف الى الارض على السنتهم !! ليس هذا فحسب ، بل انهم وقد حملهم الترف الى مواقع السلطة (والعلاقة الجدلية قائمة ابدا خلا

---

(١٥) المؤمنون ، (آية ٣٣-٣٤).

(١٦) الزخرف ، (آية ٢٢-٢٤).

(١٧) الزخرف ، (آية ٢٥).

(١٨) سبأ ، (آية ٣٣-٣٧).

التجربة الاسلامية الاصيلة بين الترف والسلطة ، فاما ان يقود الترف الى السلطة او ان تقود السلطة الى الترف) ، اعتمدوا مواقعهم تلك فأصدروا اوامرهم المشددة الى الجماهير والاتباع ، ليلا ونهارا ، ان يكفروا بالله وان يجعلوا له اندادا ، ولن يكون هؤلاء الانداد المعبودون من دون الله سوى هؤلاء الذين نقلهم الترف الى مواقع الشرك والطغيان. كما أنهم وقد جوبهوا بالنداء الجديد راحوا يحتمون بالاموال والاولاد معتقدين انهم بمنأى عن العذاب ، قريبا كان ام بعيدا . وهو احساس نفسي مؤكد لمن تخدعه (الكثرة) فتسوقه الى الاعتقاد بقدرته على البقاء في موقعه بمواجهة اية دعوة جديدة. ولكن هذه المقاييس النسبية الخاطئة ، تتهافت عبر حركة التاريخ الشاملة التي يسوقها الله بارادة الانسان. وتتبدى هذه الحماية الكاذبة التي هي ليست سوى امتحان الهي موقوت على حقيقتها !!.

ومرة أخرى يعرض علينا القرآن صورا حية شاخصة لهؤلاء وهم يتخبطون في العذاب وينالون جزاء لا يعدو ان يكون من جنس عملهم نفسه ﴿**وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ**[19] **؟ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ(٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ(٤٣)لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ(٤٤)إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ(٤٥)وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ(٤٦)وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(٤٧)أَوْ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ(٤٨)قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ(٤٩)لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ(٥٠)ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ(٥١)لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ(٥٢)فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنْ الْحَمِيمِ(٥٤)فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ**﴾[20]. وما اعدل الجزاء الإلهي ، ان المترفين الذين كانوا يتنعمون في حياتهم الدنيا بألوان الطعام والشراب ، والناس يتضورون جوعا وعطشا ، والذين كانوا يقضون ساعات الحر اللاهب في الظلال الباردة الرطبة ، والمعدمون يسحون عرقا. ها هم الان ينزلون المكان الذي اعد لهم سلفا ، والذي توحي كل كلمة من كلماته البارعة المصورة يجو الحر والاختناق ﴿**فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ(٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ(٤٣)لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ**﴾ .. ويأكلون كما تأكل الأنعام ، لأنهم في حياتهم الدنيا ما كانوا ليغايروا الأنعام في تهافتهم على الطعام والشراب . ولكنهم اذا كانوا هناك (يلتهمون) اطيب ما تمنحه الارض ، فانهم هنا يملؤون بطونهم بأسوأ ما تطلعه الجحيم ﴿**شَجَرَةُ الزَّقُّومِ**﴾ و﴿**شَرَابَ الْحَمِيمِ**﴾.

---

(١٩) لاحظ ان الشمال أي اليسار هنا وفي مواقع اخرى يجيء كرمز مقترنا بالترف ، لا العكس كما هو معروف!! وهكذا فان لنا ، اذا اردنا الحفاظ على اصالتنا ان نتميز ، حتى على مستوى تقسيمات عرضية كهذه ما دام القران نفسه لا يبخل علينا بها.

(٢٠) الواقعة ، (آية ٤١-٥٥).

وتختم هذه الآيات المروعة حديثها عن مصير هؤلاء وهي تشير بكلتا يديها : ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[٢١] .

وهذا لا يعني أبداً (تعليق) الجزاء على جريمة الترف الى يوم الحساب ، وتجميد الارادة البشرية عن العمل لوقف الجريمة واعادة حالة التوازن ، وما جاء القرآن الكريم لينفخ روح القعود والكسل في نفوس الناس ، ومن السذاجة البالغة ان يمر هذا في البال كمجرد خاطر ، وهو الذي تنزلت آياته تباعا لتؤكد مسؤولية الانسان الكاملة عن كل (فعل) يمارسه هو او تمارسه (الجماعة) التي ينتمي اليها ويندمج فيها وتشتبك مصائره بمصائرها ... على العكس تماما ، ان القرآن لا يكتفي بعرض المسألة من جانب واحد ، ويبين ما في تجربة (الترف) من قبح وكفر وظلم وانكار ... وما سيؤول اليه اصحابها من مصير يوازي بشاعة ممارستهم تلك ، يوم الحساب ، وانما ينتقل الى الجانب الاخر ، ويندد بالجماعة التي لا (تتحرك) لوقف الجريمة عند حدها ، وبالجماهير التي تنظر الى قلة من طغاتها تمارس المنكر فلا ترفع يداً ولا تنطق بكلمة ، وبالناس الذين يرون رأي العين الدمار الذي يقودهم صوب النهاية المحتومة ، بسبب ما يمارس بين ظهرانيهم من فساد ، فلا يتجمعون للمجابهة والاصلاح قبل فوات الاوان ... ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنْ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إلا قَلِيلا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ(١١٦)وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[٢٢].

وبلهجة السخرية يتحدث عن اولئك (الخاضعين) الذين يرتضون موقف الذل والتبعية لطغاتهم ومترفيهم ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ(٦٧)رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنْ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[٢٣].

ويخطو القرآن الكريم خطوة أخرى في تحليله لمسألة الترف ، لكي يبين لنا على مستوى حركة التاريخ ، وقيام الدول والحضارات وسقوطها ، المسؤولية الثنائية المشتركة التي يمارسها طرفا المسألة : المترفون والمعدمون ، في السير بالجماعة او الامة او الدولة او الحضارة ، او القبيلة التي ترد دائما كوحدة اجتماعية معينة ، نحو الدمار ... المترفون الذين يزدادون ترفا وظلما وطغيانا وفسوقا ، والمعدمون الذين يقف بعضهم (ساكنا) ازاء الجريمة ، بينما يسعى بعضهم الآخر الى الاسهام بالجرم وتعزيزه بتملقهم وتذللهم ومعاونتهم على الشر في شتى مساحاته النفسية والاخلاقية والاجتماعية. ولن يكون بعد ذلك الا ان تتخذ الارادة الالهية وفق

---

(٢١) الواقعة ، (آية ٥٦).

(٢٢) هود ، (آية ١١٦-١١٧).

(٢٣) الاحزاب ، (آية ٦٧-٦٨).

سننها الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل طبقة المترفين انفسهم ، وهم في قمة السلطة وسيلة لاحلال الدمار بأمة او جماعة فقدت كل مبررات وجودها واستمرارها ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا(١٦)وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾[٢٤].

ثم ما يلبث القرآن ان يبين ان (عطاء الله) مفتوح للجميع وانه ليس مقصورا على فئة دون فئة ، وليست الملكية او عدمها حتمية مقفلة ينعم بها ناس ويحرم آخرون. ثم ان المسألة المادية او العطاء ، ليس في نهاية الامر المقياس الموضوعي الصارم لتقسيم الناس الى درجات، انما هو الايمان الذي يناط به التفضيل الحقيقي وتنال بواسطته الدرجات الحقيقية الكبيرة عند الله. وتبقى الارزاق والاموال ، يبقى عطاء الله ، متاح الاسباب للناس جميعا ، مؤمنين وغير مؤمنين ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(١٨)وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(١٩)كُلا نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(٢٠)انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا﴾[٢٥].

وفي مكان آخر يعرض علينا القرآن صورة لمجموعتين من الناس تقف موقفا متناقضا ازاء (عطاء الله). المجموعة الاولى تقدر هذا العطاء المتقلب المتغير الذي لا يدوم ، حق قدره ، فتأخذ بدورها مراكز العطاء بالمقابل ، وتمنح بعض او جل ما وهبها الله اياه قبل ان يزول هو او تزول هي ، وتتخذ من هذا العطاء سلما تسارع في الصعود على درجاته الى الخير والحق والعدل ، والمجموعة الثانية تتنكر لصاحب هذا العطاء ، وتستأثر وتطغى ، وتتخذه سلما الى مراكز السلطة والقوة والفجور ، وحرمان الألوف ممن لا يجدون رزقهم في مواطن الظلم والاثراء والترف والطغيان .. لكن هذه الفئة المترفة ما تلبث ان تتلقى الصفعة عاجلا ام آجلا ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ(٦٠)أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ(٦١)وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ(٦٢)بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ(٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ(٦٤)لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنصَرُونَ(٦٥)قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ(٦٦)مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾[٢٦].

---

(٢٤) الإسراء ، (آية ١٦-١٧).

(٢٥) الإسراء ، (آية ١٨-٢١).

(٢٦) المؤمنون ، (آية ٦٠-٦٧).

وتتبقى سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير تعمل عملها في حركة التاريخ ، وتتخذ من المترفين اداة تسوق بها القرى والدول والجماعات والامم نحو مصائرها المفجعة ﴿**وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ(١١)فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ(١٢)لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ(١٣)قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾[٢٧].

***

و(الغنى الفاحش) الذي يقترب من الترف بدرجة او أخرى يتعرض هو الاخر لحملات القران الصارمة في اكثر من موضع ويتلقى ضرباتها في اكثر من زاوية. ان القران يحدثنا في احدى آياته عن العلاقة المتبادلة بين الغنى والطغيان ، وكيف انه لا مفر من هذا المصير السيئ الذي يؤول اليه اصحاب الالوف والملايين ... يحدثنا بلهجة الزجر والتعنيف ﴿**كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى(٦)أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**﴾[٢٨]. وفي آية أخرى يندد باصحاب الغنى والجاه وكيف ان الله سيسوقهم بممارستهم الخاطئة الظالمة الانانية الطاغية التي تنبثق بالضرورة عن الغنى الفاحش ، الى الطريق المسدود حيث السقوط الذي لن تجدي اموال صاحبه وأكداسه في إنقاذه منه ﴿**وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(٨)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(٩)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(١٠)وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى**﴾[٢٩].

وفي آية ثالثة ينقلنا نقلته السريعة المعهودة الى يوم الحساب لنلتقي بأصحاب الملايين وذوي السلطان الذين كان الناس يومها يتضورون جوعا وهم متخمون ، فلم يتحركوا لاشباع جوعتهم. نلتقي بهم لكي نرى ما الذي حل بهم ، وما هو الطعام الذي سيملؤون به بطونهم الفارهة ... هناك ﴿**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ**[٣٠] **فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(٢٥)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(٢٦)يَالَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(٢٧)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ(٢٨)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ(٢٩)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(٣١)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(٣٢)إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(٣٣)وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(٣٤)فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ(٣٥)وَلا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ(٣٦)لا يَأْكُلُهُ إِلا الْخَاطِئُونَ**﴾[٣١].

وآية أخرى تحملنا الى عصر الرسول (ﷺ) وهو يتلقى عتاب الله سبحانه ، اذ تصدى لاحد اغنياء مكة وطمع ان يجلبه الى حظيرة الايمان ، واعرض عن فقير أعمى هرع اليه لكي

---

(٢٧) الأنبياء ، (آية ١١-١٤).

(٢٨) العلق ، (آية ٦-٧).

(٢٩) الليل ، (آية ٨-١١).

(٣٠) انظر : هامش ٢ ، ص٣٦.

(٣١) الحاقة ، (آية ٢٥-٣٧).

ينتمي الى ندائه. ويبين له كيف ان (الذكرى) اجدى مع هؤلاء منها مع اولئك ، في اغلب الأحيان : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى(١)أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى(٢)وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى(٣)أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى(٤)أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى(٥)فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى(٦)وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى﴾[٣٢]. وخامسة تجتاز بنا المسافات الى أواخر العصر المدني ، حيث النفير العام الذي أعلنه الرسول (ﷺ) لقتال الروم (عام ٩هـ) في المعركة المعروفة بتبوك ، فتلقي مسؤولية التخلف على (الأغنياء) الذين رفضوا ان يستجيبوا للنداء ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[٣٣]. وآية سادسة تعرض علينا بسخرية واستهجان احدى مقولات اليهود المادية ، ارباب الذهب والفضة ، وهي مقولة مضحكة حقا ، لكن بريق الذهب ورنين الفضة يعميان ويصمان ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمْ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[٣٤].

وفي مواضع اخرى عديدة من كتاب الله تتدفق الآيات متحدثة هذه المرة عن ارباب المال، مترفين واغنياء ، فاضحة اياهم ، منددة بهم ، ملقية قوارعها على مواقفهم الرجعية المنفعية ازاء الدعوات الجديدة ، صافعة صلفهم وغرورهم ، ممزقة الاستار عن حماية المال والبنين التي يحتمون بها دائما ويتوهمون انها تخلصهم من عقاب الله ، واضعة اياهم هذه الايات وجها لوجه امام مصائرهم ، مبينة لهم ان اغداق المال عليهم ليس من مصلحتهم في معظم الاحيان ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ(٥٥)نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾[٣٥]. ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ(١)الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ(٢)يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ(٣)كَلا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾[٣٦]﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١)مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢)سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[٣٧]﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٣٨]. ويدعو نوح في قلب المحنة ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ

(٣٢) عبس ، (آية ١-٧).
(٣٣) التوبة ، (آية ٩٣).
(٣٤) آل عمران ، (آية ١٨١).
(٣٥) المؤمنون ، (آية ٥٥-٥٦).
(٣٦) الهمزة ، (آية ١-٤).
(٣٧) المسد ، (آية ١-٣).
(٣٨) التوبة ، (آية ٥٥).

مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا﴾[٣٩]. ويدعو موسى (عليه السلام) بعد قرون طويلة ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[٤٠]. ولن تغني عنهم اكداسهم من المال واتباعهم من الابناء والحواشي اذا دمدم عليهم في الدنيا او جاء دورهم يوم الحساب ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾[٤١]. ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٣٥)قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(٣٦)وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾[٤٢]. ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالا وَوَلَدًا(٧٧)أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَانِ عَهْدًا(٧٨)كَلا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا(٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[٤٣]. ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا(١١)وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا(١٢)وَبَنِينَ شُهُودًا(١٣)وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا(١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ(١٥)كَلا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا(١٦)سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا .. ﴾[٤٤]. ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالا وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾[٤٥].

هنالك الحوار الشيق الذي ورد في سورة الكهف[٤٦] بين صاحب المزارع الواسعة وبين صديق له لا يكاد يملك شيئاً ، ولقد انتهى الامر بأولهما الى البوار ... فليس الغنى والثروة في منطق الاسلام بالشيء الأبدي الدائم كما يتصور كثير من (الرأسماليين) ، ولا بالحتمية التي تفرضها (ظروف الانتاج) كما يتصور كثير من (الماركسيين) انما هي مسألة وقتية معرضة للزوال في اية لحظة قد يساء فيها التصرف ، ويمارس الطغيان ازاء جماهير الناس ، والصلف والغرور ازاء ارادة الله السريعة الحاسمة التي لا تبقى ولا تذر. ومن منا لم يقرا كذلك قصة (قارون) اليهودي المثري الذي كاد الذهب يخرج من أنفه وأذنيه !! ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ

---

(٣٩) نوح ، (آية ٢١).

(٤٠) يونس ، (آية ٨٨).

(٤١) آل عمران ، (آية ١٠).

(٤٢) سبأ ، (آية ٣٥-٣٧).

(٤٣) مريم ، (آية ٧٧-٨٠).

(٤٤) المدثر ، (آية ١١-١٧).

(٤٥) التوبة ، (آية ٦٩).

(٤٦) انظر : السورة المذكورة ، (الآيات ٣٢-٤٤).

مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(٧٦)وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(٧٧)قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ(٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٧٩)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ(٨٠)فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ﴾[٤٧].

وسوء التصرف هذا ، والطغيان ازاء (حقوق) الفقراء والمعدمين ، هو الذي قاد الاخوة الثلاثة ، اصحاب المزرعة الذين سموا – لاتساعها وامتدادها واكتظاظها – بأصحاب الجنة !! الى البوار ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(١٧)وَلا يَسْتَثْنُونَ(١٨)فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(١٩)فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ(٢٠)فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ(٢١) أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ(٢٢)فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ(٢٣)أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾[٤٨].

لكن ارادة الله سبقتهم فحصدتها قبل ان تحصدها الاثرة والجشع والطغيان !

وبينما تنصب الاوصاف القاسية السيئة على الفقراء المعدمين في المجتمعات التي يسودها الترف والطغيان فيوسمون بالأوباش والأراذل والسوقة والادنياء والمتطفلين ... الى اخره ، ينعكس الموقف في القرآن الكريم حيث توجه اقسى الكلمات الى (اصحاب المال) المارقين ويرمون بأقسى النعوت. ها هي احدى الايات تتحدث عن (احدهم) مخاطبة الرسول (ﷺ) : ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ(١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ(١١)مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢)عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ(١٣)أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ(١٤)إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(١٥)سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾[٤٩].

ولا نجد في القرآن ، في مقابل هذا ، أي نعت او صفة قاسية تلحق بالفقراء والمعدمين ، وكل ما ورد عنهم انما جاء على لسان الكفار والمترفين انفسهم من تسمية هؤلاء باراذل القوم ،

---

(٤٧) القصص ، (آية ٧٦-٨١).

(٤٨) القلم ، (آية ١٧-٢٤).

(٤٩) القلم ، (آية ١٠-١٦).

وانهم طليعة من يتبع الانبياء وهم يدعون الى الايمان ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾[٥٠] . ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾[٥١] وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه.

وكان أرباب المال هؤلاء كانوا يدركون ما وراء الدعوات الجديدة التي يناديهم الأنبياء (عليهم السلام) للانتماء إليها ، من تغيير في العلاقات الاجتماعية واسلوب جديد في التعامل مع (المال) ، فكانوا يطرحون دوما سؤالهم الاستنكاري هذا ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ؟﴾[٥٢].

ونجيء أخيراً الى الآية التي يحسم القرآن فيها الموقف ازاء المترفين والاغنياء وارباب المال الذين يقفون بمواجهة (العدل) الذي جاءت الاديان لتحققه في هذا العالم ... الاية التي سنعود اليها مرة اخرى والتي تقودنا الى اكثر من افق ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣٤)يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[٥٣].

***

وفي مقابل هذه الحملة الشاملة الحاسمة الرهيبة على ظاهرتي (الترف) و(الغنى الفاحش) في التجربة الاجتماعية ، ما الذي يقدمه القرآن الكريم عن الفقر والفقراء والمساكين والمعدمين ؟ هل هي دعوة للتبرع لهم والاحسان اليهم فحسب ؟ فأين اذن السلطة الاسلامية ؟ وهل يمنع هذا الاسلوب (الادبي) ، دونما ضمانات تشريعية ، ظهور وتضخم طبقة المترفين وتحول المال الى دولة بين الاغنياء ؟ ما الذي دفع القرآن الكريم الى ان يعرض في عشرات المواضيع مسألة (الاتفاق) على الفقراء ، و(الحض) على اطعامهم ، بكل ما يتضمنه فعل (الحض) من قوة وفاعلية لتحقيق هذا الهدف ، وهو اشباع الجائعين وسد حاجاتهم الاساسية ؟ ومن اولى من السلطة المشرعة والمنفذة ، بالتخطيط لهذا المطلب الحيوي الخطير وتنفيذه في عالم الواقع ، بما تمتلكه من قوة وفاعلية ؟

---

(٥٠) الشعراء ، (آية ١١١).

(٥١) هود ، (آية ٢٧).

(٥٢) هود ، (آية ٨٧).

(٥٣) التوبة ، (آية ٣٤-٣٥).

صحيح ان (الانفاق) الفردي و(الصدفة) الاختيارية و(التكافل) الاجتماعي ، وغيرها من فاعليات العطاء التي يمارسها المسلم ازاء اخوانه تمثل جزء اساسيا من برنامج العدل الاجتماعي في الاسلام وتغطي مساحة واسعة من نداءات القرآن في هذا المجال ، وتلعب دورا كبيرا في احداث التوازن والانسجام والتعاون والترابط بين افراد المجتمع المسلم وفئاته ، وتجتث ادران الحقد والكراهية والشر لكي تزرع بدلا منها علائق التكافل والمحبة والخير ... لا سيما في الفترات التي تغيب فيها السلطة ، فيتعرض الفقراء والمعدمون للموت جوعا ، فتمتد اليهم اليد التي لا (تتبرع) و(تمن) ولكن تعطي وتواسي وتندمج وتتعاون لكي تنقذهم من هذا المصير المفجع.

أي منا لم يمارس بنفسه ، او يشاهد اخوانه ورفاقه المؤمنين ، يحصون اموالهم سنة بسنة لكي يقتطعوا منها حق (السائل) و(المحروم) ، ويقدموها وزيادة دونما جلبة ولا ضوضاء ، في عصر طرحت فيه شعارات ومزايدات ما زادت الفقراء والمعدمين الا جوعا ونصبا ؟!

ومع ذلك فلا يعدو ان يكون هذا (العطاء) ، على أهميته ، مساحة محدودة فحسب من المساحات الشاسعة لبرنامج العدل الاجتماعي الذي رسم القرآن والسنة خطوطه العريضة ، ونفذ الرسول (ﷺ) والراشدون (رضي الله عنهم) مخططاته الفذة ، وبنى الفقهاء والمجتهدون على هذا وذاك مقولاتهم ونظرياتهم العجيبة المتفردة.

وفي اكثر من ثلاثين موضعا من القرآن الكريم ترد الدعوة لإطعام الفقراء والمساكين وسد حاجاتهم الاساسية ، وفي اكثر من أربعين موضعا يرد التأكيد على فريضة الزكاة والصدقات وتقييم دافعيها والتنديد بمانعيها ، وفي اكثر من سبعين موضعا يتردد ذكر الانفاق وتسلط عليه الاضواء من كافة زواياه ، وفي اكثر من موضع يجيء التأكيد على ان هذا العطاء ليس تبرعا ولا منا ولكنه (حق) السائلين والمحرومين ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾(٥٤) ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ(٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(٥٥) ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(٥٦) ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾(٥٧).

وفي آيات اخرى يرد الحض على اشباع الجائعين وسد حاجاتهم الاساسية كجزء اصيل من متطلبات الايمان ، كممارسة الصلاة سواء بسواء ، وان التوقف عن هذا (الحضّ) يخرج اصحابه من حظيرة الدين ويدمغهم بالكذب ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(٢) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ(٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ

---

(٥٤) الإسراء ، (آية ٢٦).

(٥٥) المعارج ، (آية ٢٤-٢٥).

(٥٦) الذاريات ، (آية ١٩).

(٥٧) الأنعام ، (بعض الآية ١٤١).

سَاهُونَ(٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ(٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[٥٨] **﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(٣٣)وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(٣٤)فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ(٣٥)وَلا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ(٣٦)لا يَأْكُلُهُ إِلا الْخَاطِئُونَ﴾** [٥٩] **﴿كَلا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧)وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾**[٦٠].

ولن يكون (الحض) ، ما دام قد اقترن بالإيمان ، واصبح وقفه وقفا لحركة الدين نفسه ، لن يكون بكلمات متثائبة تقال ، او بيد تدفع بقايا الطعام الى المساكين الذين يقفون وراء الابواب خائفين متوسلين. انما (بالفعل) الدائم والحركة المستمرة ، وبالثورة اذا اقتضى الامر لتحقيق هذا المطلب الاساسي ... تماما كما ان الصلاة فعل دائم وحركة مستمرة وانها بمجرد تحولها الى الظل والى ان تغدو ممارسة جانبية ، تدمغ صاحبها بالنفاق ...

وهذا هو الذي دفع أبا بكر الصديق (رضي) الى ان يشهر السيف بوجه ما نعي الزكاة ويعلن **﴿وَاللَّهُ لاقاتلن مِنْ فَرَّقْ بَيْنِ الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾**.

ولا يتصورن احد ان كثرة ورود الفقراء والمساكين وابناء السبيل في القرآن الكريم ، يجيء بمثابة تأكيد لابدية ظاهرة (الفقر والحرمان) التي هي كما هو معروف اجتماعيا مسألة (نسبية) ، لان كثرة ورود الكفر والشرك ، واللات وهبل والعزى ، ووأد البنات ، وأكل مال اليتيم ، وممارسة الربا اضعافا مضاعفة ، وشرب الخمر ولعب الميسر ، وعبادة الناس ، لا تحمل اية دلالة على ابديتها !! ثم ان القرآن الكريم لا يمكن ان يناقض نفسه فيدعو الى تأييد ظاهرة يشن هو نفسه الحملة عليها ، ويصل بها في إحدى آياته الى ان يربطها بالشيطان وبما يأمر به ويدعو اليه من الفحشاء **﴿يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾**[٦١].

***

وثمة آيات اخرى تصل بنا الى آفاق أبعد في مسألة التوازن الاجتماعي .. الاية التي تطلب من المسلمين ، دولة وجماعة ، ان (يتحركوا) مقاتلين مجاهدين لانقاذ المستضعفين في الارض من ايدي ظالميهم وجلاديهم وتعطي الاشارة الى ان (السيف) هو الحكم الاخير عندما تعجز كل الاساليب الاخرى عن وقف الظلم وتخليص البائسين ... وان الجهاد تلك الثورة المسلحة هي الحركة التي تنقل المقاتل المسلم الى كل ميدان يمارس فيه الظلم ضد الانسان ، ايا

---

(٥٨) الماعون ، (آية ١-٧).

(٥٩) الحاقة ، (آية ٣٣-٣٧).

(٦٠) الفجر ، (آية ١٧-١٨).

(٦١) البقرة ، (آية ٢٦٨).

كان شكل هذا الظلم وايا كانت دوافعه : ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا**﴾[٦٢].

وهذه الآية التي يطرحها القرآن ليتحرك المسلمون على ضوئها على المستوى الجماعي ، تقابلها آية أخرى تدعوهم الى ان يتحركوا على المستوى الفردي كذلك ، وان يقتحموا (العقبة) ، هكذا ، بكل ما يتضمنه (فعل) الاقتحام من قوة وعنف وارادة لا بد منها جميعا لاجتياز الحاجز ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(١٢)فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(١٤)يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ**﴾[٦٣] ... تحرير المستعبدين واطعام الجائعين ، ذلك هو الهدف الذي يقتحم المؤمن من اجله الحواجز بقوة وعنف وحزم وارادة !!

والآية التي تطرح نفسها كسؤال خطير امام الرسول (ﷺ) وامام أي (مشرع) مسلم يجيء بعد الرسول (ﷺ) : ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ : مَاذَا يُنفِقُونَ؟**﴾ ويجيء الجواب الدائم غير الموقوت ، بينا صريحا : ﴿**قُلْ : الْعَفْوَ**﴾[٦٤] !!

والعفو هنا هو كل ما زاد عن الحاجة ... وسنتذكر هذا المبدأ الخطير في التسوية الاجتماعية عندما نستمع فيما بعد الى احدى كلمات الرسول (ﷺ) ، ولا بأس ان نوردها هنا ، قال (ﷺ) (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ...) ويقول شهود العيان (ان الرسول (ﷺ) ذكر من اصناف المال ما ذكر حتى رأينا انه لا حق لاحد منا في فضل) !!

وهنالك الآية التي (تأمر) المسلمين : دولة ومشرّعاً وجماعة ، ألا يسمحوا لإموالهم التي لكل فئة منهم حق معلوم فيها ، والتي جعلها الله لهم سببا من اسباب البقاء والنماء ، ان تذهب الى (السفهاء) ، بهذا التعبير الصريح في تنديده ﴿**وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا**﴾[٦٥]. والآيات التي تقطع الطريق على اية محاولة لطمس حقوق الناس في اموالهم لكي يزداد اصحاب السلطة والواجدون غنى ، والفقراء والمعدمون فقرا ، وتسم هذه المحاولة التي يمكن ان تتم بألف اسلوب بالاثم والعدوان والظلم والاجرام ، اكثر من ذلك تسمها بقتل النفس. وليس كفقدان العدل الاجتماعي معولاً ينزل على بنية المجتمعات فيفتتها ويدمرها ويمحوها ﴿**وَلا تَأْكُلُوا**

---

(٦٢) النساء ، (آية ٧٤).

(٦٣) البلد ، (آية ١١-١٦).

(٦٤) البقرة ، (آية ٢١٩).

(٦٥) النساء ، (آية ٥).

أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٦٦] **﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾**[٦٧] **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا(٢٩)وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾**[٦٨].

والآية التي تصب حمما من نار على طبقة (رجال الدين) من (الأحبار والرهبان) الذين اشتروا بعقيدتهم ثمنا قليلا ، وراحوا يدجلون على الناس باسم الدين ليأكلوا أموالهم ويضخموا بها حجم كنوزهم من الذهب والفضة. وكأن القرآن الكريم يفتح اعين المسلمين جيدا ، ويستفز وعيهم الدائم كي لا يتيحوا لظاهرة هدامة كهذه ان تبرز في مجتمعهم وبين ظهرانيهم ، مهما كانت على درجة من الضالة والخفاء ، ويندد بكل من تحدثه نفسه بممارسة الاسلوب الذي مارسه الاحبار والرهبان طويلاً. وهذا وغيره من الاسباب يفسر لنا انعدام ظهور المرتزقة بالدين في تاريخنا وظهور نقيض هذا تماما ، رجال الفكر الإسلامي وهم اشد الناس فقرا وتواضعا واندماجا في حياة الناس العاديين ، ورفضا لمواقع السلطة وانكارا لاغراء الذهب والفضة. ليس هذا فحسب ، بل ان القرآن يوجه تحذيره الرهيب الى المسلمين انفسهم الا يكنزوا الذهب والفضة ، وان ينفقوها في سبيل الله ، وانه بدون هذا وذاك فسوف تنقلب عليهم وبالا يوم الحساب ... واي مترف او غني تستحيل حياته الى تكديس للمال ، والناس يتضورون جوعا ، دون ان يتحرك بأمواله لوقف ظاهرة الجوع والحرمان ، فان له ان يتصور ان هذا الخطاب موجه اليه ، وانه غريب عن المجتمع الاسلامي الذي ينتمي اليه ، بل انه مارق عن قيمه واهدافه **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣٤)يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾**[٦٩]. **﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ أي اليهود : يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمْ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٦٢)لَوْلا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمْ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمْ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾**[٧٠].

---

(٦٦) البقرة ، (آية ١٨٨).

(٦٧) النساء ، (آية ٢).

(٦٨) النساء ، (آية ٢٩-٣٠).

(٦٩) التوبة ، (آية ٣٤-٣٥).

(٧٠) المائدة ، (آية ٦٢-٦٣).

وفي آيات أخرى من سورة الفجر يتكرر هذا التنديد بجمع المال واكل التراث ويرتبط جدليا بعدم اكرام اليتامى و(الحض) على اطعام الفقراء ، مبتدئا بكلمة الزجر القرانية العنيفة : كلا !! ﴿كَلا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧)وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨)وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَمًّا(١٩)وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[٧١]. ونحن لا نستطيع الا ان نلحظ السمة الجماعية المشتركة في فعل (تحاضون) ، والمفهوم الحركي الكامن في صيغته المبالغة.

والآيات الكثيرة التي تأمر بربط (الاشباع) بـ (الاعتدال) والتقوى والعمل الايجابي الصالح، وتنهى عن الاسراف والطغيان والفساد في الارض واتباع خطوات الشيطان ، تعمق في اذهان المسلم العادي والمشرع ، وتحذرهما في الوقت نفسه ، من حتمية هذه العلاقة الجدلية المتقابلة بين عدم تنظيم الاشباع وبين كل ما يتمخض عنه من ظلم (اجتماعي) يتمثل بالاسراف والطغيان والافساد في الأرض. وليس ثمة مجتمع تتحكم فيه قلة من الذين يملكون بكثرة من الذين لا يملكون ، وتتخم فيه بطون معدودة وتتضور الملايين ، يخلو من سمات الاسراف والطغيان والافساد في الارض ، ذلك (الافساد) الذي يتلبس وسط هذا التناقض الاجتماعي الف لبوس ، ويتخذ وقد اختفى التوازن ألف وسيلة لتدمير المجتمع ، وعرقلة الحركة الحضارية ، ووضع العوائق في طريقها ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالا طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٧٢] ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ﴾[٧٣] ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[٧٤] ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ﴾[٧٥] ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾[٧٦] ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾[٧٧].

والآية التي تبين للناس جميعا ان الارض قد (ذللت) لهم بارادة الله سبحانه وتعالى ، وتدعوهم الى ان (يتحركوا) في أمدائها و(يأكلوا) من رزقها ... ولا معذر بعدها لجائع قاعد لا

---

(٧١) الفجر ، (آية ١٧–٢٠).
(٧٢) البقرة ، (آية ١٦٨).
(٧٣) البقرة ، (آية ٦٠).
(٧٤) الأنعام ، (آية ١٤٢).
(٧٥) الأنفال ، (آية ٦٩).
(٧٦) المؤمنون ، (آية ٥١).
(٧٧) طه ، (آية ٨١).

يجهد ، ومسحوق لا يتحرك ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾(٧٨).

والآية التي تقرن مأساة الجوع بكارثة الخوف وتبين لهم كم هي عظيمة المنة التي يمنها الله على الناس عندما ييسر لهم سبل الشبع والامن ... أفلا يعبدوه ؟؟ ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(٣)الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(٧٩).

والآيات التي تأمر المسلمين بأن يتجاوزوا أخطاءهم ويكفروا عنها باعتبارها اعمالا سالبة وذلك بتقديم ما يقابلها ويعوض عنها من (عطاء) باعتباره عملا ايجابيا يمنح المجتمع ما خسره بممارسة الاخطاء. واي فعل أولى بهذا العطاء من (اطعام) الجائعين وتحرير المستعبدين ؟. ﴿لا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ..﴾(٨٠) ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾(٨١).

والآية التي تبين ان طبيعة الحياة الدنيا وفلسفتها (العملية) تقوم على (التفاضل) بين الناس في الرزق ، وان حكمة الله (سبحانه وتعالى) هي التي قادت الى هذا انسجاما مع طاقات الناس وقدراتهم واهتماماتهم وحرصهم ومدى تحملهم للمسؤولية ومقدار يقظة ضميرهم ، وتمشيا مع متطلبات التطور والتنوع والتغاير في مسيرة الحضارات البشرية في كل زمان ومكان ، ورفضا للمنطق المثالي الذي يتخيل الناس وقد تساووا في ارزاقهم (مطلق) التساوي ، ذلك المنطق اللاواقعي الذي قدمت لنا التجربة الشيوعية في روسيا ارتطامه الصريح في ميدان التنفيذ وفي مدى العلاقات الفعلية في المجتمع. إلا ان آية كهذه وهي لبنة من لبنات كتاب الله المعجز لا تقف عند حد تسليط الضوء على الجانب الواقعي من الصورة الاجتماعية ، فهي في شقها القريب الثاني سرعان ما تبين ان المال ، الذي هو في أساسه ملك للناس جميعا ، يلغي أي تصور قد يدور في اذهان الذين يملكون كثيرا من انهم وحدهم اصحاب الحق في هذا المال ، لان الطرفين فيه سواء ، هكذا بهذه الصراحة القرانية المعهودة ، وان أي غبش قد يعتري هذه الحقيقة انما هو جحود بنعمة الله ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(٨٢).

---

(٧٨) الملك ، (آية ١٥).

(٧٩) قريش ، (آية ٤).

(٨٠) المائدة ، (آية ٨٩).

(٨١) المائدة ، (آية ٩٥).

(٨٢) النحل ، (آية ٧١).

ويعود القرآن الكريم ليطرح مرة اخرى ، وهو يتكلم عن تهيئة الارض لاستقبال الحياة البشرية في فجر التاريخ الجيولوجي البعيد ، مسألة التساوي بين الناس في (القوت) الذي منحه الله لهم جميعا ﴿**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ**﴾(٨٣) ، ليس هذا فحسب ، بل ان القرآن الكريم ينعى على الكفار تصورهم الساذج ان الله (سبحانه وتعالى) ما دام قد كتب (الجوع) على طائفة من الناس فانه ليس بمقدور احد من خلقه ان يطعمها !! بهذه السذاجة التي كثيرا ما دارت في اذهان القانعين والزاهدين ، والتي تمنح في المقابل مبررا مضحكا ولكن ذو فوائد جمة للمالكين الذين لا يبذلون أي جهد في انقاذ الذين لا يملكون ، فما دام الله هو الذي اجاعهم فليس بمقدور احد من خلقه ان يشبعهم ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾(٨٤).

وهذا ينقلنا الى مسألة ذات اهمية بالغة في قضية (العدل الاجتماعي) ان لم تكن محورها الأساسي وعمودها الفقري ، تلك هي قضية اشباع حاجة الانسان الاساسية الى (الطعام). ونحن نستطيع ان نميز بين المذاهب التي اعارت هذا الجانب الحيوي اهتماما ما بدرجة او اخرى ، وتلك التي لم تكترث له البتة ، وظلت معلقة في سماواتها وأخيلتها ومثاليتها ، بمجرد ان نلقي نظرة سريعة على عدد المرات التي وردت فيها المفردات ذات العلاقة المباشرة او غير المباشرة بالموضوع من اكل ورزق وطعام وشراب ، والمناخ الذي وردت فيه ... وليس لباحث جاد يقرأ كتب عدد من الفلاسفة والمفكرين كجمهورية افلاطون ويوتوبيا توماس مور ومدينة اوغسطين المقدسة ومدينة الفارابي الفاضلة ، ولا يرى فيها الا اهتماما عابرا بمسألة الاكل والطعام والرزق والشراب ، ثم لا يحكم عليها بانها لا تولي اهتماما مصيريا حاسما لاشباع احدى اهم حاجات الانسان الأساسية . وليس لباحث جاد كذلك ان يقرأ كتاب الله ويلتقي بعشرات ، بل مئات المواضع ، التي وردت فيها مفردات هذه المسألة ، الا ان يستنتج ان الإسلام جاء لكي يضع هذه المسألة الحيوية في مقدمة برامجه التغييرية ، ويوليها اهتماما مصيريا حاسما !!.

في حوالي مائة موضع في القران ترد كلمة (الآكل) بتصريفاتها المختلفة ، وفي حوالي خمسين موضعا ترد كلمة (طعام) بتصريفاتها المختلفة ، وفي حوالي ثلاثين موضعاً ترد كلمة (شراب) بتصريفاتها المختلفة ، وفي حوالي مائة وعشرين موضعا ترد كلمة (الرزق) بتصريفاتها المختلفة. وليس هذا فحسب ، بل ان (المناخ) الذي كانت هذه الكلمات ترد فيه في كثير من الاحيان ، والارضية التي تحركت عليها عبر الآيات والسور ، يبين لنا بوضوح كامل ووفق

---

(٨٣) فصلت ، (آية ١٠).

(٨٤) ياسين ، (آية ٤٧).

أساليب القران اللغوية والبلاغية ، مدى الاهمية المولاة لهذه المسألة الحيوية التي هي من اشد المسائل اهمية في تاريخ الانسان. هذا في الوقت الذي نجد فيه (مناخات) و(ارضيات) كلمات كالطعام والشراب والاكل ، في عدد من المذاهب والأديان الأخرى المحرفة ، تعج بروائح الاختقار والرفض والدنس والاشمئزاز. ولكن أنى لهؤلاء ان يهربوا من صيحات اجوافهم الجائعة التي لو ألقمت حصى وأحجاراً لطحنتها ؟!.

ومن ثم كان التناقص المحزن الذي عرفه التاريخ مرارا : ان ياكل هؤلاء ويشبعوا ويتجاوزوا الشبع الى التخمة ، ويتجاوزوا التخمة الى التكديس ، بينما اتباعهم وعبدتهم يتضورن جوعا ... وهذه الفرضية المحزنة بالنسبة لاصحاب المذاهب (المتطهرة) والاديان الروحية (المحرفة) وبعض الحركات الصوفية المتطرفة والتي استهجنت الحديث عن الطعام والشراب ، انعكست تماما في القرنين الاخيرين ، وبشكل اشد ايلاما ، في المذاهب (واليساريات) التي رأت في المعدة بدء حياة بني آدم ومنتهاها ورفعت مسألة الطعام والشراب الى مصاف القداسة ، فاذا بسدنة هذا الحرم المقدس من قادة الدعوات اليسارية ، يأكلون فيشبعون فيتخمون فيكدسون ، واذا بالجماهير الساحقة من الناس تكدح وتتصبب عرقا ، وتموت مسغبة وجوعا ، لكي تقدم لسدنة (الحرم المقدس) الجدد ، الاضحيات والقرابين !!.

المهم ان الاسلام ، هذا الدين (الوسط) ، اولى هذه الحاجة الحيوية ، كما اولى الحاجة الجنسية تماما ، اهتمامه الجاد الكبير ، وهذا امر طبيعي تماما ، لان الله سبحانه الذي خلق الانسان وصاغ وظائفه العضوية ، وقدر حاجاته الاساسية ، ادرى بمتطلبات هذه الحاجات وضرورة تلبية نداءاتها الأبدية المستمرة ، واعلم بطبائع الانسان التي ان لم تنسق وتنظم وترتب ضماناتها فانها سوف تدمر نفسها بالاثرة بينما يموت الآخرون جوعا ، او تقتلها بالحجب والكبت والحرمان ، فتشذ عن منطق التكوين البيولوجي للانسان.

***

واهتمام القران الكريم بالمسألة التي تحت أيدينا يتبدى اول ما يتبدى ، كما قلنا ، في هذا العدد الكبير من المواضع التي وردت فيها مفردات المسألة وعباراتها ، وفي المناخ والارضية التي تحركت عليها هذه العبارات والمفردات ، وتنفست !! واليكم بعد ذلك نماذج محدودة فحسب من هذا العرض القرآني لمسألة الآكل والطعام والشراب :

الأكل :

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٦٥)وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(٨٥).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾(٨٦).

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾(٨٧).

﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(٨٨).

﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(٨٩).

﴿وَلَكُمْ فيها مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(٩٠).

﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾(٩١).

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(٩٢).

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾(٩٣).

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾(٩٤).

---

(٨٥) المائدة ، (آية ٦٥-٦٦).

(٨٦) السجدة ، (آية ٢٧).

(٨٧) النور ، (آية ٦١).

(٨٨) النحل ، (آية ٥).

(٨٩) المؤمنون ، (آية ١٩).

(٩٠) المؤمنون ، (آية ٢١).

(٩١) فاطر ، (آية ١٢).

(٩٢) غافر ، (آية ٧٩).

(٩٣) ياسين ، (آية ٣٥).

(٩٤) ياسين ، (آية ٣٣).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ(٧١)وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢)وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾[٩٥].

﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا﴾[٩٦].

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[٩٧].

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾[٩٨].

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ﴾[٩٩].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالا طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[١٠٠].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[١٠١].

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١)قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...﴾[١٠٢].

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾[١٠٣].

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[١٠٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾[١٠٥].

---

(٩٥) ياسين ، (آية ٧١-٧٣).

(٩٦) البقرة ، (آية ٣٥).

(٩٧) البقرة ، (آية ٥٧).

(٩٨) البقرة ، (آية ٥٨).

(٩٩) البقرة ، (آية ٦٠).

(١٠٠) البقرة ، (آية ١٦٨).

(١٠١) البقرة ، (آية ١٧٢).

(١٠٢) الأعراف ، (آية ٣١-٣٢).

(١٠٣) طه ، (آية ٥٤).

(١٠٤) الحج ، (آية ٢٨).

(١٠٥) الملك ، (آية ١٥).

الطعام :

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾(١٠٦).

﴿قل : لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَنْ يَكُونَ ...﴾(١٠٧).

﴿وقالوا : هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلا مَنْ نَشَاءُ...﴾(١٠٨).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(١٠٩).

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا(٨)إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾(١١٠).

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ(٣)الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(١١١).

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي(٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾(١١٢).

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾(١١٣).

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾(١١٤).

﴿وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾(١١٥).

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾(١١٦).

---

(١٠٦) المائدة ، (آية ٩٣).

(١٠٧) الأنعام ، (آية ١٤٥).

(١٠٨) الأنعام ، (آية ١٣٨).

(١٠٩) ياسين ، (آية ٤٧).

(١١٠) الإنسان ، (آية ٨-٩).

(١١١) قريش ، (آية ٤).

(١١٢) الشعراء ، (آية ٧٩).

(١١٣) آل عمران ، (آية ٩٣).

(١١٤) المائدة ، (آية ٥).

(١١٥) الفرقان ، (آية ٢٠).

(١١٦) المائدة ، (آية ٩٦).

﴿فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(٢٤)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا(٢٥)ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا(٢٦)فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا(٢٧)وَعِنَبًا وَقَضْبًا(٢٨)وَزَيْتُونًا وَنَخْلا(٢٩)وَحَدَائِقَ غُلْبًا(٣٠)وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾(١١٧).

الشراب :

﴿أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ(٦٨)أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنْ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ(٦٩)لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾(١١٨).

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنْ الْفَجْرِ﴾(١١٩).

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾(١٢٠).

﴿نُسقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِه مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾(١٢١).

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾(١٢٢).

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١٢٣).

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾(١٢٤).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾(١٢٥).

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ ؟﴾(١٢٦).

* * *

(١١٧) عبس ، (آية ٢٤-٣٢).
(١١٨) الواقعة ، (آية ٦٨-٧٠).
(١١٩) البقرة ، (آية ١٧٨).
(١٢٠) مريم ، (آية ٢٦).
(١٢١) النحل ، (آية ٦٦).
(١٢٢) النحل ، (آية ١٠).
(١٢٣) النحل ، (آية ٦٩).
(١٢٤) ص ، (آية ٤٢).
(١٢٥) فاطر ، (آية ١٢).
(١٢٦) ياسين ، (آية ٧٣).

يتقدم بنا القرآن الكريم خطوات واسعة اخرى في ميدان (العدل الاجتماعي) ، واضعا في كل خطوة يخطوها ، واية يطرحها ، معلما من معالم هذا الميدان ومبدءأ من مبادئه الأساسية التي تقوم عليها جزئيات التنفيذ ويومياته المتغيرة المتحولة ، الا ان القاعدة تبقى دوما هي القاعدة ... يتقدم بنا صوب حقيقة اخرى لا تقل عن سابقاتها ان لم تفقها على الاطلاق ، تلك هي ان الناس مستخلفون في أرض الله ، وان اموالهم ليست في (ملكيتهم) ابتداءا ، انما هي (مال الله) استخلفهم فيه لينظر ماذا يصنعون به ، وفي أي الوجوه يسخرون (قيمه) ويعتمدون (منفعته) بارادتهم الخاصة وحريتهم التي منحهم الله اياها تمييزا لهم عن كثير من خلائقه ... ومعنى هذا ان بني ادم جميعا يملكون حقهم المشروع في هذا المال ، وان (وكالته) او (تفويضه الاجتماعي) الموقوت ليس ابديا لأية فئة من الناس لا تحسن شروط توظيفها عليه ، ولا (تعدل) في تصريف قيمه ومنافعه ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(١٢٧) ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾(١٢٨).

والقرآن الكريم يربط هذا (الموقف) الاجتماعي بنظريته الشاملة عن دور الانسان في الارض ، ذلك الدور الذي يقوم في اساسه على استخلافه في هذا العالم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ : إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١٢٩) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾(١٣٠) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(١٣١)﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾(١٣٢).

ومسألة استخلاف الناس في الأموال ، ونفي ملكيتهم له ابتداء ، تزداد وضوحا وتأكيدا بمجرد ان نلقي نظرة سريعة على المواضع التي وردت فيها كلمة (رزق) في القرآن بتصريفاتها المختلفة ، ففي جل تلك المواضع البالغة حوالي المائة والعشرين يرد فعل (الرزق) مرتبطا بمصدره الحقيقي ومالكه الاول والاخير : الله سبحانه ، وفي معظمها ترد الدعوة الموجهة للانسان بأن ينفق ويعطي من رزق الله هذا ، وان عليه ان يتذكر دوما ان هذا المال ليس ماله

---

(١٢٧) الحديد ، (آية ٧).

(١٢٨) النور ، (آية ٣٣).

(١٢٩) البقرة ، (آية ٣٠) وانظر : كتاب (التفسير الاسلامي للتاريخ) للمؤلف الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين (بيروت–١٩٧٦).

(١٣٠) الأنعام ، (آية ١٦٥).

(١٣١) يونس ، (آية ١٤).

(١٣٢) فاطر ، (آية ٣٩).

وانما هو مال الله !! وبدون هذا الانفاق والعطاء فانه سوف يقدم الإشارة على انه فردا ام جماعة غير مستحق هذا المال :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾(١٣٣).

﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ﴾(١٣٤).

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾(١٣٥).

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(١٣٦).

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾(١٣٧).

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(١٣٨).

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾(١٣٩).

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ؟﴾(١٤٠).

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾(١٤١).

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾(١٤٢).

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾(١٤٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾(١٤٤).

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾(١٤٥).

---

(١٣٣) ياسين ، (آية ٤٧).

(١٣٤) البقرة ، (آية ٢٥٤).

(١٣٥) المنافقون ، (آية ١٠).

(١٣٦) البقرة ، (آية ٣).

(١٣٧) ابراهيم ، (آية ٣١).

(١٣٨) الشورى ، (آية ٣٨).

(١٣٩) الأنعام ، (آية ١٥١).

(١٤٠) النحل ، (آية ٦٤).

(١٤١) الملك ، (آية ٢١).

(١٤٢) الشورى ، (آية ٢٧).

(١٤٣) الشورى ، (آية ١٢).

(١٤٤) العنكبوت ، (آية ١٧).

(١٤٥) الذاريات ، (آية ٢٢).

﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾[١٤٦].

﴿وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[١٤٧].

وما كان لنا ان نغادر كتاب الله الى سنة رسوله (ﷺ) قبل ان نقف قليلا عند ايات (الحشر) الحاسمة في هذا المجال ، الايات التي تحمل دعوة الله الصريحة الى رسوله والمؤمنين ان (ينظموا) مسألة (توزيع المال) بشكل لا يقود الى حصره في يد القلة وحجبه عن الكثرة الساحقة ... وهذا امر طبيعي تماما ما دام القرآن قد حدثنا كما راينا عن الصورة الكالحة القاتمة للمجتمع الذي تكون كلمته الاولى والاخيرة للمترفين : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٧)لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ(٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(٩)وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[١٤٨].

ان كلمات الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات من سورة الحشر ، وهي تأمر بتوزيع الفيء على كافة الفئات (المحتاجة) في المجتمع الاسلامي الوليد ، تقدم برنامج (عدل اجتماعي) سار على هدية الرسول (ﷺ) وخلفاؤه الراشدون (رضي الله عنهم) ، وان عبارة (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) هي غاية ما يمكن ان يطرح في مجال كهذا أمام المشرع الإسلامي.

---

(١٤٦) ص ، (آية ٥٤).

(١٤٧) العنكبوت ، (آية ٦٠).

(١٤٨) الحشر ، (آية ٧-١٠).

القسم الثالث

تعاليم في مواقف الرسول (ﷺ)

طرح الرسول (ﷺ) قيم العدل الاجتماعي ومبادئه وخطوطه العريضة على مستويات ثلاثة ، في أولها قدم لنا مبادئ ونظريات وقواعد يمكن ان يبني المشرع الإسلامي عليها – كما حدث فعلا – عمارات فقهية شامخة في ميدان العدل الاجتماعي ، مستمدّاً قدرته على العمل من روح هذه المبادئ والنظريات والقواعد ، مهندسا اجتهاداته وفق مساراتها واتجاهاتها. وفي ثانيها نفذ الرسول (ﷺ) بعض التجارب واجرى عددا من التغييرات والممارسات على المستوى الجماعي فجاء هذا (التنفيذ) الواقعي امتدادا للمبادئ والنظريات المطروحة على لسانه (ﷺ) وتاكيدا في الوقت نفسه على ان الإسلام ما جاء لكي يطرح افكارا خيالية ومثلا معلقة في سماء الأحلام ، وانما لكي (يغير) شكل الواقع و(يبدل) في احجامه المتوارثة ويحول علاقاته لصالح الإنسان ، وانه بواقعيته هذه قدير على ان يتحرك دوما في عهد الرسول وصحابته وتابعيه والمنتمين الى دعوته جيلا بعد جيل ، كما حدث فعلا ، من اجل احداث هذا التغيير والتبديل والتحويل.

أما على المستوى الثالث فقد نفذ الرسول (ﷺ) باعتباره القائد الأعلى للجماعة الاسلامية واسوتها الحسنة على مر الاجيال نفذ (اخلاقية) العدل الاجتماعي التي تنبعث من الاعماق وتؤول الى ممارسة وسلوك وعمل تتبدى ملامحها في كل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وكل منعطف من منعطفاتها ، ابتداء بمسالة السكنى والملبس والطعام والشراب داخل بيته وانتهاء بطبيعة علاقاته كنبي وقائد مع أبناء أمته ، فأعطى الاشارة الحاسمة لكل الّذين سيجيئون بعده فتحملهم الاحداث او الجماهير الى مراكز السلطة ، واشعل الضوء الذي على هديه سار خلفاؤه الراشدون ، حكام العالم ، وهم يتضورون جوعا ، وينامون على الحصى ، ويأكلون الخل والزيت، ويلبسون قمصانا مرقوعة لم يتجاوز احدها يوما اربعة دراهم او خمسة. ولقد ظل الضوء النبوي وسيظل رغم انطفاء العصر الراشدي ، مشعلا لكي يبين لكل الواصلين الى السلطة من المؤمنين الحقيقيين معالم الطريق. وليس انقلاب عمر بن عبد العزيز خليفة نصف العالم وتحوله الذاتي الاخلاقي العظيم ، اثر تسلمه السلطة ، سوى مثل من الأمثال.

على هذه المستويات الثلاثة المتداخلة ، المترابطة كحلقة متماسكة لا تدري أولها من أخرها ، طرح الرسول (ﷺ) قيم العدل الاجتماعي ومبادئه وخطوطه العريضة ، وكان هذا يعني في التحليل السلبي من جهة اخرى ان افتقاد وتحطمّ أي راس من رؤوس هذا المثلث ذي الزوايا المتناظرة ، سيعرض التجربة لضربة قاصمة ، وسيفكك اضلاع المثلث ويتيح للقوى المضادة (من انتهازيين ووصوليين وانصاف مؤمنين وارباب مال ومنافع ، ومترفين ومنافقين وطواغيت) ، كما حدث ويحدث بالنسبة لكثير من التجارب الاجتماعية ، ان تتسلل أفواجاً أفواجاً لكي تقبع

هناك. وماذا يبقى من المفهوم الاسلامي للعدل وقد آل الامر الى ان يملأ هؤلاء مساحات المثلث ذي الاضلاع المفككة ؟ ومن ثم كان لنا ان ندرك مدى خطورة هذا الارتباط العضوي ، ليس في الإسلام فحسب بل في كل المذاهب ، بين نظرية تطرح وتجربة تنفذ واخلاقية تحمي النظرية والتجربة من التحوير والاستغلال والتزوير وتلتزم ، بصرامة ، أسلوبا في التعامل مع الذات ومع الاخرين وهي في قمة السلطة ، ليس كذلك الذي تمارسه وهي في القاعدة !!.

واذا لم تكن تجربة العدل الاجتماعي في الاسلام قد نفذت وبرزت بأطرافها جميعا ، في فترات طويلة من تاريخنا ، واذا كان بعض المتسلطين قد جرفتهم الاحداث الى مواقع السلطة دون ان يفعلوا شيئا في هذا الميدان ، بل دون ان يوقفوا التيار المضاد عن تدفقه وتضخمه ، اكثر من هذا ، راحوا هم انفسهم والمحيطون بهم يعملون ، في الاتجاه الاخر المعاكس فيزدادون ترفا وتخمة وطغيانا بينما تزداد في الجهة المقابلة ازمة الجوع والفقر والسغبة بين جماهير أمتهم. اذا ما حدث هذا وذاك فانه ليس عيبا او خللا في نظام الاسلام ذاته وفي برامجه الاجتماعية ، انما هي الارادة والوعي البشريان اللازمان دائما لحماية المبادئ من التجميد والانحراف او التسلل والاستغلال.

وما اكثر المتسللين والمنفعيين والوصوليين والمنافقين الذين مارسوا السلطة في مستوياتها العليا واثروا وامتلكوا واترفوا عبر التجارب الاشتراكية ، وما اطول المدى الذي اجتازته مجتمعات الغرب الرأسمالية التي بلغ فيها التنافس حده الاقصى ، فتحتّم على الديالكتيك ان يمارس دوره ويدفع البروليتاريا الى الثورة واستلام السلطة ، دون ان يحدث ما يوحي بقرب اليوم الموعود !!.

ومرةً أخرى : الوعي والارادة البشرية المدعمة بالايمان هما اللتان تصنعان الاحداث وتصوغان حركة التاريخ وتحميان المبادئ والتجارب من التجميد والتزوير والتزييف والاستغلال ، ولا شيء وراء ذلك مما يقال انه حتميات التاريخ !! ولنا بعد ذلك أن نعرض بايجاز تام لكل من هذه المستويات الثلاثة التي طرحها ونفذها رسول الإسلام (ﷺ) مقتطعين منها نماذج فحسب ، اذ يصعب الحصر في بحث موجز كهذا ، مركزين على المبادئ متجاوزين التفاصيل والجزئيات.

أولا : المبادئ والقواعد والنظريات :

يطرح الرسول (ﷺ) مبادئ متفاوتة الدرجات ازاء (المال) و(حق الجماعة) ويساط الضوء على المسألة الاجتماعية من زواياها وأطرافها كافة لكي لا تتبقى منها اية مساحة غارقة في العتمة ، وهو في هذا كله انما يساير القران جنبا الى جنب ، يؤكد اياته البينات ويعززها ويوضحها. انه (ﷺ) يتحدث عن العمل والاجر والارض والزراعة ، وعن طبيعة العلاقات المتينة العميقة التي تربط بين افراد المجتمع المسلم الواحد وتجعلهم كالبنيان لا يسمحون لاي منهم يسلم

او يظلم ... وعن المسؤولية الجماعية التي تحتم على كل فرد ان يعرف مواطن الحق والواجب والا عصفت بهم العواصف.

ويقف طويلا عند الثروة ويبين في اكثر من موضع انها ليست هدفا ولا يجب ان تكون كذلك ، والا قادت عبيدها ومستخدميها الى الدمار ، وكيف ان الموقف الصائب في التعامل معها يضعها في موضعها المناسب من فاعليات الانسان على الارض ، كوسيلة تحمله والجماعة معه الى ابعد الافاق .. وكيف ان حق الجماعة في المال يتدرج من (الزكاة) ، حده الادنى ، صعدا صوب القمة التي تغدو فيها مشتركة في هذا المال الزائد عن حاجة صاحبه ، وما وراء ذلك هو ما عبر عن الرسول (ﷺ) بقوله "ما يسرني ان عندي مثل احد هذا ذهبا ، أموت وعندي منه دينار ، الا ان اقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ... " وطوح بيديه يمينا وشمالا وخلفا. وسنرى في المقطع الاخير من هذا البحث كيف مات الرسول (ﷺ) وليس عنده دينار واحد !!.

يتحدث الرسول (ﷺ) عن (العمل) باعتباره الاساس الذي يوليه الاسلام الاهمية الكبرى ، والذي تتمخض عنه ابتداء (القيمة) التي يتضمنها المال و(المنفعة) المترتبة عليه ، ويجب ان نلاحظ هنا كيف ان القران الكريم يورد العمل بتصريفاته المختلفة وابعاده الجزئية والشاملة ، المادية والاخلاقية ، الدنيوية والاخروية ، فيما يزيد عن ثلاثمائة وخمسين موضعا ويسعى (ﷺ) الى ان يدرا ، بحض اتباعه على العمل ، ظواهر التبطل والكسل والتواكل والاستجداء التي تتناقض اساسا مع متطلبات العدل الاجتماعي وصورة المجتمع الذي يسوده التوازن الفعال.

قال : " والذي نفسي بيده لئن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من ان يأتي رجلا فيسأله ، أعطاه أو منعه " وقال " ما اكل احد طعاما قط خير من ان ياكل من عمل يده " وقال " على كل مسلم صدقة. قالوا : يا نبي الله فمن لم يجد؟ قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق. قالوا : فان لم يجد؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا : فان لم يجد؟ قال : فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فانها له صدقة ". المهم هو ان يعمل الانسان المسلم ، وان يكون ايجابيا ، فاذا عجز عن تفجير طاقاته في بعض مساحات النشاط البشري ، فان هناك مساحات اخرى غيرها.

ومن أجل تأكيد هذه الفكرة في العطاء الاجتماعي قال ، فيما نقله لنا حكيم بن حزام ، " سألت رسول الله فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : يا حكيم ان هذا المال خضرة حلوة فمن اخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن اخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى " وقال " ما من مسلم يغرس غرسا او يزرع زرعا فيأكل منه طير او انسان او بهيمة الا كان له به صدقة " وقال " العمل عبادة " و" طلب كسب

الحلال فريضة " و" طلب الحلال جهاد " و" من امسى كالا من عمل يده امسى مغفورا له يوم القيامة " وقال " ان اشرف الكسب كسب الرجل من يده " ، وقبل يدا ورمت من كثرة العمل وقال " هذه يد يحبها الله ورسوله " وقال " ان الله يحب العبد المؤمن المحترف ".

ومرة اخرى يعود الى ايجابية العمل في الحياة الإسلامية ويفضله على " سكون " العبادة فيقول " لئن يمشي احدكم مع اخيه في قضاء حاجته افضل من ان يعتكف في مسجدي هذا شهرين " ويبلغ من تقييمه للعمل وتقديره للعطاء وإدراكه العميق للدور الذي يمارسه على المستوى الاجتماعي خاصة والحضاري عامة ان قال " اذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع الا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر ".

ويؤكد رسول الله (ﷺ) وهو يتحدث عن العمل على " حق " الأجير والعامل ، هذا الحق الصارم الذي يجب ان يعطاه لحظة توقفه عن العمل جزاء وفاقا على ما قدمت يداه ، فيأمر أصحابه " أعطوا الاجير حقه قبل ان يجف عرقه " ، ويصب غضبه الشديد ويعرب عن خصومته القاطعة لكل من يستأجر أجيرا فيأكل حقه : " ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل اعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرا ثم اكل ثمنه ، ورجل استأجر اجيرا فاستوفى منه فلم يعطه أجره ".

ولم يترك رسول الله (ﷺ) مسألة من اهم مسائل العمل ، تلك هي تكليف العامل او الاجير بذل جهد اكبر من ذلك الذي تم الاتفاق عليه ، او قضاء ساعات اطول في العمل ، او انجاز قطع اكثر من المتفق عليها ، وضرورة ضمان هذه الزيادة في الجهد الذي تنبثق عنه قيمة اكبر لصاحب العمل. كما انه لم يترك مسألة العلاقات الانسانية التي يجب ان تسود بين الطرفين : العامل وصاحب العمل ، في أي نشاط اجتماعي ، ويتقدم بها (ﷺ) صعدا حتى يضعها في مرحلة الاخوة الكاملة حيث يأمر أصحابه حينذاك : عمالا واصحاب عمل ، ان يأكلوا سويا ويلبسوا سويا .. يقول ".. اخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت ايديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ، ولاتكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فاعينوهم ". وليس ثمة نظام تعرض فيه مسألة " العمل " وفق هذا المثلث الصارم : منح حق العامل كاملا في وقته المناسب ، وزيادة هذا الحق بما يتناسب واتساع الجهد الذي يبذله العامل، ورفع العلاقة بين العامل وصاحب العمل الى مستوى الاخوة والتعامل المشترك في الطعام واللباس .. ليس ثمة نظام كهذا يتاح فيه لو نفذت تعاليمه في عصر صناعي على سبيل المثال ان تنمو وتترعرع الأخلاقية الرأسمالية الجائرة والطبقية المقيتة. ثم ان هذه التعاليم وغيرها كثير ، تعد في الوقت نفسه سببا في عدم وصول المجتمع الاسلامي الى مرحلة الرأسمالية ، بمفهومها الكامل ، رغم ما قدمته له حضارته من معطيات في ميادين التكنولوجيا والعلوم التطبيقية ، لان اخلاقية المسلمين التي صنعها دينهم وصاغها رسوله (ﷺ) تقف حائلا دون هذا المصير حتى

لو لم تجيء " الحروب الصليبية " و" الغزو المغولي " لكي تدمر حيوية الحضارة الاسلامية وتنقل البندول الى عالم الغرب.

وليس ادل على اهمية العمل في نظر الاسلام ، وانه وراء القيمة الحقيقية للإنتاج ، من موقف القران والسنة الحاسم المعروف ازاء العمليات الربوية بكل اشكالها التي لا محل لعرضها هنا ، ومن الاحاديث الشريفة التي وردت عن مسألة الارض والزراعة وانها لمن " يزرع " لا لمن " يملك " ، وان الذي يعمل في الارض التي لا يملكها احد ، احق بها ، ونحن نجتزئ منها بهذه الاحاديث : عن عائشة (ﷺ) ان النبي (ﷺ) قال " من اعمر ارضا ليست لاحد فهو احق بها ". وعن رافع بين خديج ان النبي (ﷺ) نهى عن كراء المزارع ، وعن جابر بن عبد الله ان رسول الله (ﷺ) نهى أن يؤخذ للارض اجر او حظ. ويقول (ﷺ) " عادي الارض لله والرسول ثم لكم ، فمن احيا ارضا ميتة فهي له ، وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين ". ويقول " من كانت له ارض فليزرعها او ليمنحها ". وكان رسول الله (ﷺ) قد اعطى بلالا بن الحارث المزني جميع ارض العقيق ، فلما كان زمن عمر قال لبلال : ان رسول الله (ﷺ) لم يقطعك لتحتجزه عن الناس ، انما اقطعك لتعمل ، فخذ منها ما قدرت على عمارته ورد الباقي.

ويبني المشرّع الاسلامي الشهير ابن حزم القرطبي " ت ٤٥٦هـ " على هذه الاحاديث في مسألة الارض والمزارعة رايه المعروف في المحلى " ولا تجوز اجارة الاراضي اصلا ، لا للحرث فيها ولا للغرس فيها ، ولا للبناء فيها لشيء من الاشياء اصلا .. لا لمدة مسماة قصيرة ولا طويلة، ولا بغير مدة مسماة ، لا بدنانير ودراهم ، ولا بشيء اصلا .. فما وقع فسخ ابداً. ولا يجوز في الارض الا الزراعة بجزء مسمى مما يخرج منها ، او المغارسة كذلك فقط. فان كان فيها بناء قل او كثر جاز استئجار ذلك البناء ، وتكون الارض تبعا لذلك البناء غير داخلة في الإجارة أصلا " !

وكما كانت قواعد العمل الآنفة رهينة بعدم ظهور مجتمع رأسمالي على النمط الغربي ، كانت هذه القواعد الخاصة بالنشاط الزراعي رهينة بعدم ظهور المجتمع الاقطاعي على النمط الغربي نفسه ، لولا ان انحرف الناس في ميدان التطبيق ، بدرجة او بأخرى ، عن قيم الاسلام وتعاليمه ، وهذه المسألة شيء والقول بان الاسلام جاء لكي يعزز النمو الاقطاعي او الرأسمالي في المجتمعات البرجوازية شيء اخر يتهافت بمجرد القاء نظرة سريعة على نظرية الاسلام نفسها.

ويتحدث الرسول (ﷺ) عن " التروة " ويبين في اكثر من موضع كيف انها ليست هدفا ولا يجب ان تكون كذلك ، والا قادت عبيدها ومستخدميها الى الدمار ، وكيف ان الموقف الصائب في التعامل معها يضعها في موضعها المناسب من فاعليات الانسان على الارض ، كوسيلة تحمله ، والجماعة معه ، الى ابعد الافاق ، ويحمل على الترف والمترفين الذين لا

يعرفون حقوق غيرهم في الجماعة التي ينتمون اليها والذين يأكلون كما تأكل الانعام. يحدثنا عنهم باسلوب ينضح بالسخرية والتنديد ويذكرنا بمواقف القران منهم وصوره عنهم. عن ابي سعيد الخدري أن النبي (ﷺ) جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله فقال : " إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها .. وان مما ينبت الربيع يقتل او يلم الا آكلة الخضراء اكلت حتى اذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ورتعت ، وان هذا المال خضرة حلوة فنعم صاحب المسلم ما اعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل او كما قال النبي (ﷺ) وانه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ويكون شهيدا عليه يوم القيامة ".

وفي مقابل هذه الصورة البشعة المنفرة يطرح الرسول (ﷺ) تلك الصورة الوضيئة المشرقة التي يحدثنا عنها ابو ذر (رضي الله عنه) ، هذا الصحابي الجليل " كنت امشي مع النبي في حرة المدينة ، فاستقبلنا أحد فقال : يا أبا ذر !! قلت : لبيك يا رسول الله !! قال : ما يسرني ان عندي مثل احد هذا ذهبا ، اموت وعندي منه دينار الا ان أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله وعن خلفه ، ثم مشى فقال : ان الاكثرين هم الاقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا وهكذا ، وقليل ما هم ".

ولا يعني هذا ان الرسول (ﷺ) كان يحب الفقر او يدعو إليه ، أبدا .. لان هذا الموقف يتناقض اساسا مع نظرية الإسلام عن دور الإنسان الإيجابي البناء في العالم ، كما يتناقض مع فلسفة العدل الاجتماعي الاسلامي القائمة على ضرورة اشباع حاجات الانسان الأساسية وإسعاده وتمكينه من دوره ، بل انه يتناقض بالكلية مع مواقف الرسول (ﷺ) نفسه ازاء الفقر كظاهرة اجتماعية سلبية شاذة ومرض فتاك ... من ثم كان الرسول (ﷺ) يساويه بالكفر كظاهرة تتميز هي الاخرى بالشذوذ والمرضية على كل المستويات ، كان يستعيذ منهما على السواء .. كان يقول " كاد الفقر ان يكون كفراً " . وأنّى للجائع ان يرتفع بأشواقه ووجدانه الى السماء ، ويناجي الله على مكث ويتأمل في ملكوت السماء والأرض وامعاؤه تتقطع الما ومسغبة وجوعا ؟! وكان (ﷺ) يدعو الله " اللهم اني اعوذ بك من الكفر والفقر " فقال رجل : أيعدلان ؟ أجاب الرسول نعم!!

وعن طبيعة العلاقات الاجتماعية الايجابية المتينة العميقة التي تربط بين افراد المجتمع المسلم الواحد ، وتسوسهم بمنطق التكافل ، وتجعلهم كالبنيان ، يمنحنا الرسول (ﷺ) مزيدا من القيم والتعاليم .. عن عبد الله بن عمرو ان رجلا سأل رسول الله (ﷺ) أي الاسلام خير ؟ قال " تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف " وعن انس عن النبي (ﷺ) قال " لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه " " لا يؤمن " بهذا الجزم !! ... والمحبة ليست عواطف تمنح فحسب ، بل انها عطاء وتضحية ونبل وايثار والا فلن تستكمل ابعادها ابدا . والحديث التالي يسلط اضواء اكثر على المسألة : عن ابي موسى ان النبي (ﷺ) قال : " على

كل مسلم صدقة. فقالوا : يا نبي الله فمن لم يجد ؟ قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق قالوا : فان لم يجد ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف قالوا : فان لم يجد ؟ قال : فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فانها له صدقة ".

ويصور الرسول (ﷺ) في حديث اخر المسؤولية الاجتماعية المشتركة الملقاة على عاتق المسلمين جميعا في المسير بالجماعة الى بر العدل والخير والامان قال " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم اعلاها وبعضهم اسفلها فكان الذين في اسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو انا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا !! فان تركوهم وما ارادوا هلكوا جميعا ، وان اخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا " من اجل ذلك قال الرسول (ﷺ) في حديث آخر " المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا " ومن ثم فان أي خلل يصيب البناء الاجتماعي يجيء بمثابة علامة خطر أكيدة في مسيرة الجماعة الاسلامية كلها فان تداركوا الخلل نجوا والا فان البناء سيتصدع والمركب سيستقر بهم في الاعماق !!

وتقودنا قضية (الترابط الاجتماعي) هذه الى مسألة من اهم مسائل العدل الاجتماعي في الاسلام ، تلك هي التكافل الاجتماعي الذي تأمر به الدولة ، او تقوم به الجماعة تطوعا واختيارا، ومن وراء الدولة والجماعة أحاديث وقيم طرحها الرسول على طول حياته بين مكة والمدينة متدرجا وأصحابه بين (الزكاة) كحد ادنى من العطاء مفروض على المال ، وبين الاشتراك الكامل فيه ، مرورا (بالتصدق) الذي لا حد له والذي يتراوح هو الاخر بين الكلمة الطيبة والدرهم والدرهمين ، وبين التنازل الكامل عن المزارع والاراضي والممتلكات والأموال .

عن ابن عمر ان رسول الله قال " أمرت ان أقاتل الناس حتى يشهدوا **ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة** ، فان فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحق الاسلام وحسابهم على الله ".

وعن ابي عباس ان النبي (ﷺ) بعث معاذا الى اليمن فقال له " ادعهم الى شهادة ان لا اله الا الله ، واني رسول الله ، فان هم أطاعوا لذلك فأعلمهم ان الله افترض عليهم صدقة في اموالهم تؤخذ من اغنيائهم وترد على فقرائهم " وفي مقابل هذا قال " ان في المال حقا سوى الزكاة ". ونذكر بهذا الصدد ما قاله الامام الغزالي في المستصفى " اذا خلت ايدي الجند من الاموال ولم يكن من مال المصالح – بيت المال – ما يفي بخراجات العسكر ، وخيف من ذلك دخول العدو بلاد المسلمين ، او ثوران الفتنة من قبل اهل الشر ، جاز للامام ان يوظف على الأغنياء مقدار كفاية الجند " وما قاله الشاطبي معلقا على ذلك "وقد نفذ هذا في زمن الدولة الاسلامية ، ومن ذلك في عهد الملك قطز لرد التتار بناء على فتوى سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى " " واتفق العلماء انه اذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فانه

يجب صرف المال اليها " ، وما قاله الامام مالك " يجب على الناس فداء اسراهم وان استغرق ذلك اموالهم ، وهذا اجماع أيضاً ".

ويمضي رسول الله (ﷺ) متحدثا عن المسألة من اكثر من زاوية قال : " ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع الى جنبه وهو يعلم " ، وقال " ايما اهل عرضة اصبح فيهم امرؤ جائعا برئت منهم ذمة الله ورسوله " ، وقال " اذا بات مؤمن جائعا فلا مال لاحد ". ويعلق الدكتور علي البارودي على هذا الحديث (في كتابه : دروس في الاشتراكية العربية) بقوله " انه ما دام في المجتمع جائع واحد او عار واحد ، فان حق الملكية لاي فرد من افراد هذا المجتمع لا يمكن ان يكون شرعيا ، ولا يجب احترامه ولا تجوز حمايته ... ومعنى ذلك ان هذا الجائع الواحد يسقط شرعية سائر حقوق الملكية الى ان يشبع ".

وتعليقا على حديث آخر بهذا الصدد وهو " المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه " يقول ابن حزم في كتابه المحلى ، باب الزكاة ، " من تركه يجوع ويعرى فقد اسلمه " ويضيف ان للجائع عند الضرورة ان يقاتل في سبيل حقه في الطعام الزائد عند غيره " فان قتل الجائع فعلى قاتله القصاص ، وان قتل المانع فإلى لعنة الله !! " ويستطرد ابن حزم قائلا : ".. وفرض على الاغنياء من اهل كل بلد ان يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، ان لم تقم الزكوات بهم ، ولا في سائر أموال المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ومن اللباس في الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة ". وهو يروي حديث الرسول (ﷺ) " من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس او سادس " !!

وفي أكثر من مرة يعلن الرسول (ﷺ) عن تعهد الدولة للفقراء والضعفاء والعاطلين والعاجزين " من ترك كلا (أي ذرية ضعيفة) فليأتني فانا مولاه " " ومن ترك ضياعا فعلي ضياعه " " ما من مؤمن الا وانا اولى به في الدنيا والآخرة ". وفي حديثه الشهير "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالامام راع وهو مسؤول عن رعيته .. " يعلن (ﷺ) مسؤولية الحاكم او الدولة الاسلامية عن كافة رعاياها ، مسؤولية شاملة ، ولم يستطع احد ان يقول ان للحاكم او الدولة الا تعتبر نفسها مسؤولة عن اولئك الذين يموتون جوعا ولا يقدرون على ممارسة ادوارهم الطبيعية في الحياة لانهم قد اخرجوا بالفقر والجوع والحرمان عن مواقفهم الصحيحة ، لان المسؤولية واحدة لا تتجزأ ، وهي ترد في هذا الحديث (مطلق) مسؤولية لا مسؤولية جزئية عن جانب ما من جوانب العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

ويتقدم (ﷺ) خطوات اخرى واسعة مدهشة في مجال العدل والتكافل الاجتماعيين وصل بهما الى الآفاق التي ما كانت (ظروف الانتاج) ، وفق التفسير المادي للتاريخ ، تسمح بمجرد التفوه بها. قال " من ولي لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، وليست له زوجة فليتزوج ، او

ليس له دابة فليتخذ دابة ". وقال " طعام الاثنين كافي الثلاثة وطعام الثلاثة كافي الاربعة ". وثمن ما كان يفعله (الاشعريون) من عرب الجنوب بكلمات توحي انه لم يكن يباركهم فحسب ، بل (يأمر) بتنفيذ (أسلوبهم) أيام الأزمات والمجاعات والمهمات (المشتركة) " ان الاشعريين – يقول (ﷺ) – إذا أرملوا في الغزو او قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في اناء واحد بالسوية فهم مني وانا منهم " " اقتسموه في اناء واحد بالسوية " " فهم مني وانا منهم " ، تلك كلمات واشارات ما كان لها ان تفلت من بين أيدينا وتغيب عن أذهاننا حتى لو مضى عليها آلاف من السنين !!

ثم ها هو الرسول (ﷺ) يعلن في احدى الاسفار مخاطبا اتباعه : " من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ..." ويضيف الرواة ان الرسول (ﷺ) ذكر حينذاك من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا انه لا حق لأحد منا في فضل !!

ثانيا : التجارب والممارسات الجماعية :

تبرز تجربة (المؤاخاة) المعروفة في مقدمة الممارسات الجماعية التي نفذها الرسول (ﷺ) ، في المدينة ، أول عهد الدولة الإسلامية بالظهور والتشكل ، وقد اراد (ﷺ) ان يحل بهذه التجربة (الأزمة المعاشية) التي اجتاحت المهاجرين بعد مغادرتهم مكة ، مخلفين وراءهم اموالهم وممتلكاتهم ، وبنظم علاقاتهم الاجتماعية بإخوانهم الأنصار ، ريثما يستعيد المهاجرون مقدرتهم المالية ويتمكنوا من بلوغ مستوى (الكفاية الاجتماعية). فاعتمد أسلوب المؤاخاة والمشاركة بين الطرفين فقال : " تآخوا في الله أخوين أخوين ". وقد بلغ من تأكيد الرسول (ﷺ) على تعميق (المشاركة) ان كان ميراث الأنصاري يؤول بعد وفاته إلى أخيه المهاجر بدلا من ذوي رحمة من الاخوة او الأبناء او النساء. واستمر ذلك حتى موقعة بدر التي حظي فيها المهاجرون بمقادير لا بأس بها من الغنائم والأموال ، مكنتهم من الحصول على تعويض نسبي عما خسروه اثناء الهجرة ، وحينذاك انزل الله تعالى ﴿**وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾ ، فعاد التوارث سيرته الأولى ، وتأكدت بالمقابل قاعدة اساسية اخرى من قواعد العدل الاجتماعي في الإسلام والتي تجعل الجهد البشري يتوزع وفق دائرة ، اكثر منطقية ، تبدأ بالاخوة والأبناء ، وتتسع لكي تضم الوحدة الاجتماعية كلها مرورا بذوي القربى والجار ، تقديرا منه للتكوين النفسي العميق للإنسان ، وفطرته التي تميل في (العطاء) في الاعم الاغلب للأقرب فالأبعد.

وقد تلقى الانصار اوامر الرسول (ﷺ) بفرح عميق ، وفتحوا قلوبهم ودورهم لرفاقهم في العقيدة ، حتى ان الواقدي يذكر بان الرسول (ﷺ) لما تحول من بني عمرو بن عوف في قباء الى المدينة ، تحول أصحابه من المهاجرين فتنافست فيهم الانصار ان ينزلوا عليهم حتى اقترعوا فيهم بالسهمان ، فما نزل احد منهم على احد الا بقرعة سهم ، كما أعلن الأنصار انهم يهبون الرسول (ﷺ) كل فضل في خطط بلدهم وقالوا له : ان شئت فخذ منا منازلنا.

فقال لهم خيرا ، وخط لاصحابه في كل ارض ليست لاحد او موهوبة من الأنصار. ولما غنم المسلمون أموال بني النضير (سنة ٤هـ) دعا الرسول (ﷺ) الأنصار وذكرهم بما صنعوا للمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم ، واثرتهم على أنفسهم ، ثم قال "ان أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله علي من بني النضير ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلهم وأموالهم ، وان أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم ، فأجابه زعماء الاوس والخزرج : يا رسول الله بل تقسمه للمهاجرين ، ويكونون في دورنا كما كانوا ، ونادت الأنصار : رضينا يا رسول الله.

وقابل المهاجرون ايثار اخوانهم وسماحتهم بتقدير كامل وسماحة مماثلة ، رافضين منذ البدء ان يكونوا اتكاليين على اخوانهم ، وعالة على اولئك الذين آووهم وقاسموهم ، وليست قصة عبد الرحمن بن عوف مع أخيه الانصاري سعد بن الربيع سوى مثل واحد من عديد من الأمثلة على هذا التقابل الاخوي العادل في الاخذ والعطاء . روى البخاري ان المهاجرين لما قدموا الى المدينة اخى رسول الله (ﷺ) بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لرفيقه : اني اكثر الانصار مالا فاقسم لك نصف مالي ، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها فاذا حلت تزوجتها ، فقال له عبد الرحمن : لا حاجة لي في ذلك ، هل من سوق فيه تجارة ؟ قال : سوق قينقاع. فغدا عبد الرحمن فأتى باقط وسمن ، ثم تابع الغدو ، وما لبث ان جاء وعليه اثر الصفرة (أي الزينة) فسأله رسول الله : تزوجت ؟ قال : نعم. قال : ومن ؟ قال : امرأة من الأنصار ، قال : كم سقت إليها ؟ أجاب : زنة نواة من ذهب !!

لقد كان الاخاء تجربة رائدة من تجارب العدل الاجتماعي ، ضرب الرسول فيها مثلا على مرونة الإسلام وانفتاحه في الظروف المناسبة على اشد (أشكال) العلاقات الاجتماعية مساواة وعدلا ، ورد فيها ، وفق المنطق الالهي الذي لا يحابي ولا يداجي على كل القائلين بان الإسلام جاء لكي يمثل (اصلاحا) جزئيا للمسألة الاجتماعية ، لان (العصر) الذي تصوغه (وسائل الانتاج) لم يتح له ان يتحرك لصياغة عالم جديد من العلاقات لم تسمح المرحلة الانتاجية بعد بصياغتها ولم تأمر بها. وسنرى بعد قليل ، عبر سني الدعوة الحافلة ، المزيد من التجارب الاجتماعية التي ترفض منطوق هذا التحليل الخارجي الصارم ، تلك التجارب التي لا تقل في دلالتها واهميتها عن تجربة (المؤاخاة).

لقد نجحت التجربة لان الارضية التي اقيمت عليها ، والقيادة التي خططتها ونفذتها ، استكملتا كل شروط النجاح في مجتمع شاب يحكمه مبدأ العطاء قبل الأخذ وتشده أواصر العقيدة وحدها ، ويوجهه الايمان العميق في كل حركاته وأعماله وفاعلياته ، ويقوده الرسول (الاسوة) الذي ضرب بتجرده وايثاره ، وانسلاخه عن الاخذ ، وعطائه الدائم ، مثلا عاليا ومؤثرا يحرك حتى الحجارة الصم لكي تنبجس فيتدفق منها الماء ، وانى لتجربة كهذه ان تفشل وتتعثر والرسول (ﷺ) يخوض مع اصحابه من الكبار والقادة تجربة الفقر والجوع في سني الهجرة الاولى ، لا يعاني كما يعانون ، بل اكثر مما يعانون ، دون ان يفكر يوما بأن يمتطي منصبه (الاعلى) ليسلك طريقا آخر غير الذي يسلكه اتباعه ، فيثرى ويفقرون ، ويأخذ ويعطون ، ويشبع ويجوعون .. وسنرى في المقطع الاخير من هذا البحث ، الابعاد العميقة الشاملة للالتزامات الأخلاقية التي اخذ الرسول بها نفسه في هذا الميدان الخطير في حياة البشرية.

ان تجربة المؤاخاة نجحت ، وكان لا بد لها ان تنجح ما دامت قد استكملت الشروط وتهيأت لها الاسباب في القيادة والقاعدة على السواء ، وبغض النظر عن عدد الذين تآخوا عشرات كانوا ام مئات ام ألوفاً.

وبمرور الوقت اخذت الممارسات الجماعية على مستوى القيادة والقاعدة تزداد وتتنوع ، وتقدم لنا الدلائل والاشارات على رغبة الاسلام (العملية) العميقة في التسوية الاجتماعية ، متمثلة بفاعلية الرسول واتباعه ، وبما كان يرافقها ويوازيها ويعقب عليها من آيات واوامر وبرامج يتنزل بها الوحي من السماء وتغطي مساحات كبيرة من كتاب الله.

روى ابن سعد ان عددا من أبناء القبائل قدموا على رسول الله (ﷺ) في أعقاب فتح خيبر (مطلع عام ٧هـ) فكلم الرسول أصحابه فيهم ان يشركوهم في الغنيمة ، ففعلوا . وروى الواقدي أن المسلمين لما فتحوا حصون خيبر وجدوا هنالك متاعا وسلاحا واثاثا كثيرا "فاما الطعام والادم والعلف فلم يخمس ، يأخذ منه الناس حاجتهم" . كما يروى ان الرسول (ﷺ) نادى خلال حصار الطائف سنة (٨هـ) أن أي عبد نزل من الحصن وخرج الينا فهو حر ، فخرج اليه بضعة عشر رجلا ، فاعتقهم وسلم كل رجل منهم الى رجل من المسلمين يمونه ويحمله. ويروي ايضا ان الرسول (ﷺ) استقرض في اعقاب فتح مكة مبلغ ثلاثين ومائة الف درهم من عدد من سكان مكة وقسمها بين اصحابه من اهل الضعف ، فيصيب الرجل خمسين درهما او اقل او اكثر. ويروي البلاذري ان يهود فدك صالحوا رسول الله (ﷺ) على نصف الارض ، فكان يصرف ما ياتيه منها على ابناء السبيل . وفي رواية اخرى له عن ابيض بن جمال انه استقطع رسول الله (ﷺ) الملح الذي بمأرب فقال رجل : انه كالماء العد (أي الجاري) فأبى الرسول ان يقطعه اياه. وعن عبد الله بن هشام انه كان يخرج الى السوق فيشتري الطعام فيلقاه ابن عمر وابن الزبير فيقولان

له اشركنا !! فان النبي (ﷺ) قد دعا لك بالبركة ، فيشركهم ، فربما أصاب الراحلة كما هي ، فيبعث بها الى المنزل.

وفي انساب الاشراف ان رجلا من بلقين قال : اتيت رسول الله (ﷺ) وهو بوادي القرى ، فقلت : يا رسول الله لمن المغنم ؟ قال : لله سهم ولهؤلاء اربعة اسهم. قلت : فهل احد احق بالمغنم من احد ؟ قال " لا ، حتى السهم يأخذه احدكم من جنبه فليس بأحق به من احد ". وعن ابي بكر الصديق (رضي الله عنه) قال : " سمعت رسول الله (ﷺ) يقول انما هي أي فدك طعمة أطعمنيها الله حياتي ، فاذا مت فهي بين المسلمين ". وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان للرسول (ﷺ) ثلاث صفايا ، فكانت بنو النضير لنوائبه ، وكانت فدك لابن السبيل ، وكانت خيبر قد جزأها ثلاثة أجزاء ، فجزءان للمهاجرين ، وجزء كان ينفق منه على أهله ، فان فضل رد على فقراء المهاجرين ". وليس هذا التأكيد في التوزيع على (المهاجرين) سوى محاولة من الرسول (ﷺ) لاعادة (التوازن الاجتماعي) بينهم وبين الانصار هذه المحاولة التي بدأت بمؤاخاتهم مع رفاقهم الأنصار ، ثم تطورت بمنحهم المزيد من فرص الحصول على المال لكي يبلغوا مرحلة الكفاية ويتمكنوا من مواصلة نشاطهم الاجتماعي والعقائدي على السواء.

وليست مسألة توزيع اموال بني النضير الكثيرة على فقراء المهاجرين ، وحجبها الا عن قلة من الانصار ، الا استمرارا على ذات الطريق .. وقد قدم القران الكريم ، من خلال هذه التجربة بالذات ، موقفه الحاسم إزاء التوازن الاجتماعي عندما قال ﴿**كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ**﴾. لكن هذا لم يمنع الرسول (ﷺ) تمشيا مع المبدأ نفسه من منح الأنصار ، ما دعت أحوالهم المعاشية الى ذلك . وفي رواية لابي سعيد الخدري ما يوضح ذلك حيث يقول "ان ناسا من الانصار سألوا رسول الله (ﷺ) فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفد ما عنده فقال : ما يكون عندي من خير فلن ادخره عنكم " (وانظر : دراسة في السيرة ، فصل دولة الاسلام في المدينة للمؤلف).

ومن المتفق عليه ان الرسول (ﷺ) حمى ارضا بالمدينة يقال لها "النقع" لترعى فيها خيل للمسلمين ، وكان لسمرة بن جندب نخل في بستان رجل من الانصار فكان يدخل عليه هو واهله فيؤذيه ، فشكا ذلك الانصاري الى الرسول (ﷺ) ما يلقاه من سمرة ، فطلب الرسول منه ان يبيعه او يقلعه ، فأبى ، فقال له الرسول (ﷺ) : انت مضار ، وقال الانصاري : اذهب واقلع نخله. وكان الصحابة في عهد الرسول (ﷺ) يأتي كل واحد من اصحاب النخيل بالعذق عند جذاذه ، ثم يعلّقه على باب المسجد ، يأكل منه من يشاء. وحدث في عهد رسول الله (ﷺ) ان كان ابو عبيدة بن الجراح يجاهد مع ثلاثة من اصحاب الرسول (ﷺ) ففني زادهم ، فأمرهم ان يجمعوا ازوادهم في مزودين وجعل يقوتهم اياها على السواء. وجاء رجل الى رسول الله فقال : يا رسول

الله ، اني تزوجت امرأة من الانصار ، فسأله : على كم تزوجتها ؟ قال : على أربع أواق. فقال النبي : على أربع أواق ؟ كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ، ما عندنا ما نعطيك ولكن عسى ان نبعثك بعثا تصيب منه. وفي خطبة الوداع اصدر الرسول (ﷺ) امره بالغاء كافة الديون الربوية وقال " ان كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله انه لا ربا ، وان ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ". ولقد جاءت الخطوة بلا ريب لمصلحة الفقراء المدينين.

وعن ابن عمر قال : لقد اتى علينا زمان وما احد احق بديناره ودرهمه من اخيه المسلم . وعن ابي هريرة ان الانصار قالت للنبي اقسم بيننا وبين اخوتنا " المهاجرين " ما نملكه من النخيل ، قال : لا. فقالوا لاخوانهم المهاجرين : تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة ، قالوا : سمعنا واطعنا. واراد النبي (ﷺ) ان يقطع لبعض الانصار اراضي مواتا في البحرين فأبوا الا ان يكتب لاخوانهم من المهاجرين بمثلها ، فلم يفعل النبي ذلك ، اذ لم تكن هناك اراض موات غير التي اراد اقطاعها للانصار.

ولن يستطيع المتمعن ان يمر على الوقائع الانفة دون ان تستوقفه بعض دلالاتها : ابناء القبائل وهم يطلبون من النبي (ﷺ) ان (يشركهم) في غنيمة اصحابه ، وطعام خيبر الذي ترك للمسلمين كافة يأخذ منه (كل حسب حاجته) ، ونداء الرسول (ﷺ) الى عبيد الطائف ان يغادروا اسيادهم لكي يحرروا ، وتوكيل كل منهم الى رجل من المسلمين يمونه ويحمله ، واستقراض الرسول (ﷺ) مبلغا ضخما من المكيين لكي يوزعه دون مقابل على اتباعه الفقراء ، و(اشتراك) ابن عمر وابن الزبير في طعام الرجل الذي دعى له الرسول (ﷺ) بالبركة ، ووقف "المنفعة" التي تغلها اراضي فدك وخيبر على ابناء السبيل والفقراء ، وتركه ملح مأرب " مشاعاً " بين الناس ، وتوزيعه فيئ بني النضير على فقراء المهاجرين وحجبه عن الانصار الا من كان من ذوي الحاجة منهم ، ومنحه المال لاولئك الانصار الذين كانوا كلما سألوه لم يمنع لهم طلبا بعبارة واضحة لا تحتمل لبسا ولا غموضا (ما يكون عندي من خير فلن ادخره عنكم).

ثم اننا نجد في تعقيبات الرسول (ﷺ) على مواقف وممارسات اصحابه الجماعية ، مباركته لمبأ " العطاء " وفق المدرج الاسلامي القائم على الاقرب اولا ، كيلا تترك اية ثغرة في بنيان المجتمع ، وتأكيده العميق على ضرورة احداث التوازن بين كتل الجماعة الاسلامية ، وتحقيق المساواة العادلة في صميم علاقاتها ، سيما في اوقات الازمات الاجتماعية والكوارث العامة.

ونحن هنا نجتزئ باثنين منها فحسب ، لان مواقف الاصحاب كثيرة متنوعة لا يحتملها بحث كهذا ، فضلا عن ان معظمها معروف يمكن الرجوع اليه بمجرد استعراض ادوارهم الاجتماعية والعقائدية في كتب التراجم. عن انس بن مالك قال "كان ابو طلحة اكثر الانصار

بالمدينة مالا من نخل وكان احب أمواله إليه بيرحاء : فلما انزلت هذه الاية ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ...**﴾. قام أبو طلحة فقال : يا رسول الله ان الله تبارك وتعالى يقول ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ ...**﴾ وان احب اموالي الي بيرحاء ، وانها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث اراك الله ، فقال رسول الله : بخ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت واني ارى ان تجعلها في الاقربين. فقال ابو طلحة : افعل يا رسول الله ، فقسمها ابو طلحة في اقاربه وبني عمه ".

وعن ابي موسى الاشعري قال : قال رسول الله (ﷺ) ؛ " ان الاشعريين اذا ارملوا في الغزو او قل طعام عيالهم بالمدينة ، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في اناء واحد بالسوية ، فهم مني وانا منهم " !!.

(اقتسموه في اناء واحد بالسوية) !! (فهم مني وانا منهم) !! مرة اخرى تلك تعقيبات على الموقف ما كان لها ان تفلت من بين ايدينا وتغيب عن اذهاننا حتى لو مضى عليها الالاف من السنين !!

ثالثا : الالتزامات والممارسات الأخلاقية :

تأخذ تجربة العدل الاجتماعي في الاسلام ، من بين سائر المذاهب ، بعذا اخلاقيا واقعيا يلعب دورا حاسما في (تنفيذ) التجربة و" حمايتها " من الاستغلال والتزييف والتزوير. ويستمد هذا البعد قوته وقدرته على ان يشق طريقه في قلب الوقائع ، من المسؤولية الدائمة التي يلقيها الاسلام على عاتق المسلم ، ومن يقظة ضميره الديني ، ومن احساسه الابدي برقابة الله سبحانه على كل خطوة يخطوها وعمل يمارسه كبيرا كان ام صغيرا ، ظاهرا ام باطنا ... والمسلم اما ان يكون مسؤولا ، يقظ الضمير ، شاعرا بالوجود الالهي الدائم في حياته ، او ان لا يكون مسلما على الاطلاق ... من ثم فاننا عندما نتكلم عن البعد الاخلاقي فانما نعني به اولئك المسلمين الذين يرون هذه المسائل الاساسية في حياتهم من بداهات ايمانهم ، ويعتقدون ان الخروج عنها بارادة وتعمد مسبقين يمثل خروجا على متطلبات الدين ومروقا عن معالم الايمان.

ومهما طرحت النظريات الاجتماعية الوضعية من حمايات اخلاقية لبرامجها ، ورسمت قيما مثالية تحميها من التبديد والاستغلال والتمييع ، فان هذه " الحمايات " وتلك " القيم " لا تعدو ان تكون نظريات معلقة في عالم المثال ما دامت لا تمتلك القوة " الداخلية " المركوزة في اعماق الانسان لكي تحولها الى ممارسات وسلوك تحرسها المسؤولية وتعمقها يقظة الضمير وتحركها رقابة الله الدائمة صوب الاحسن والاكمل .. من ثم كانت هذه البرامج عرضة دوما للخيانة والمروق وكان المنتسبون اليها نهبا للازدواجية الخطيرة بين النظرية والتطبيق ، بين

الشعارات والتنفيذ ، وبين الواقع والمثال. وما اكثر ما جرت تلك الخيانة وهذه الازدواجية النكبات والالام ، ليس فقط ازاء جماهير الناس التي مورست معها ، ولكن وهذا هو الاخطر ازاء المذهب او النظرية ، وازاء ثقة "الاتباع" بقدرة " القادة " على التنفيذ المخلص الأمين.

ان القضية في اساسها كما سبق وذكرت في كتاب (لعبة اليمين واليسار) قضية " أخلاقية " ، فالمبادئ التي تأتي من فوق ، من خارج كيان الانسان ووجوده وفطرته ، دون ان تجد سندا من العقيدة والاخلاق والضمير في اعماق الانسان نفسه ، لا تفعل فعلها في " تحويل " ذلك الانسان الى تعبير حي عن مبدئه ... الى وجود عقائدي متحرك متوحد بين الفكرة والتجربة، بين الذات والموضوع ، بين الوسيلة والهدف.

ومهما كانت تلك المبادئ الفوقية الخارجية جذرية ، ومهما ادعت من قرب الى (اليسار) ورفض (لليمين) فانها لا بد وان تفتح الباب على مصراعيه لحدوث التناقض الذي لا بد وان يجيء عاجلا او اجلا .. وهكذا تبرز الى حيز الوجود دوما قيادات ثورية تعاني الازدواج المحزن بين ما تنادي به وما تفعله ، بين ما تقوله وما تسلكه ... قيادات تقف في أقصى اليمين عمليا ، وتنادي بأقصى اليسار في مجال النظريات والخطب والتصريحات والاحلام !!

وهذه على سبيل المثال بعض الحقائق الموجزة عن الازدواجية الاجتماعية التي تعانيها احدى اشد اليساريات في العالم المعاصر علمية وثورية (التجربة اليوغسلافية الماركسية اللينية) نقتطعها من كتاب (الطبقة الجديدة) لميلوفان دجيلاس ، القطب الشيوعي اليوغسلافي الذي لعب دورا عظيما في دفع الكتلة الشيوعية الى الامام ، والرجل الثاني في يوغسلافيا بعد تيتو ، ذلك البلد الذي حكمته الشيوعية عشرات السنين سعيا وراء مجتمع يسوده العدل وفق اشد المذاهب علمية وانسانية ... ميلوفان دجيلاس الذي دخل الحزب الشيوعي رسميا عام (١٩٤١) ، وفي عام (١٩٥٤) بدأ خلافه مع تيتو من اجل مطالبته باتباع النهج الاشتراكي الديمقراطي في الحكم. وقد أدى به هذا الموقف الى ان يحكم بالسجن في السنة التالية مع وقف التنفيذ ، لكنه ما لبث ان اعتقل ثلاث سنوات بسبب انتقاده لسياسة تيتو تجاه ثورة المجر. وفي تلك الفترة ألف كتابه الشهير (الطبقة الجديدة) كتحليل موضوعي للنظام الشيوعي في واقعه التطبيقي. ومن اجل كتابه هذا حكم بالسجن تسع سنوات اخرى !!

يقول دجيلاس في كتابه ذاك " البيروقراطية السياسية تستخدم الاملاك المؤممة وتتصرف فيها ص٦٧ " ويقول " عضوية الحزب الشيوعي تعني ان العضو ينتمي الى طبقة ممتازة ذات امتيازات ، وهكذا يتجمع في لب الحزب اقوى المستثمرين ص٧٠ " ، ويقول " ان علاقة الشيوعيين مع الدولة او الحكومة هي علاقة تعبد وثني ، فهم يتصرفون بالدولة او الحكومة كما لو انها ملكهم الخاص ص١١٦ " ، ويقول " ان انظمة الحكم الشيوعية هي شكل من الحرب الاهلية الخفية بين الحكومة والشعب ص١٢١ " ويقول " الانتخابات الشيوعية سخيفة وصفها

اللورد اتلي ببراعة اذ قال عنها انها (سباق يجري فيه حصان واحد) ص١٢٨ " ثم يقول " البرلمانات هي عبارة عن اضرحة للنواب الذين تتألف منهم ص١٣٠ ".

ونشرت المجلة الألمانية der Spiegel في (عدد ٢٩ الصادرة في ١٥ تموز سنة ١٩٦٨) ص٤٧ ما يلي " نشرت اربع صحف جيكوسلوفاكية في الفترة التي ظهرت فيها امارات الاصلاح السياسي والاقتصادي على عهد السكرتير الجديد للحزب الشيوعي دوبتشيك في اخر شهر (حزيران ١٩٦٨) – بيانا من الفي كلمة للنقاد والديمقراطيين ، حددوا فيه الحزب الشيوعي على النحو التالي : هو منظمة للسلطة لها قوة جذب كبيرة تشدّ إليها : أ– الأنانيين ذوي الرغبة في الحكم. ب– والجبناء الذين لا يعرف لجبنهم حد. جـ– وأصحاب الضمائر السيئة من الناس. كما اوردت صحيفة الحزب الشيوعي الجيكوسلوفاكي Rude, Pamaue انها " سألت قراءها عن الغاء احتكار الحزب الشيوعي للسلطة او بقائه . وذكرته ان تسعة من كل عشرة من القراء طالبت بالالغاء ... " (عن د. محمد البهي : تهافت الفكر المادي ، هامش ١ ، ص٤٣).

هذا عن اليسار الاممي العلمي ، وفيه الكفاية ، فماذا عن اليساريات الاخرى التي تعرج في منتصف الطريق ، لاهثة وراء المجتمع الذي تسوده الاشتراكية ، حيث لا ظالم ولا مظلوم ؟

حقائق وتناقضات كثيرة ... كثيرة ... لا يحصيها عد ، ولا يمكن حصرها في عرض سريع كهذا ... تناقضات شهدناها جميعا بأم أعيننا منذ ان ابتلينا بلعبة اليسار واليمين ، حيث يقف اليساريون في قمة اجهزة الحكم والسلطان ، يستغلون ويتنعمون ويثرون ، ويتحولون بقدرة قادر الى طبقة رأسمالية من نوع جديد يقترن بارهاب اشد وكبت أقسى ، وبوليسية اعتى ، وظلم اعمق سوادا ، تضيع في غمراته صيحات المظلومين ... تضيع لان اليسار رغم طبقيّته واستغلاله وتنعمه وثرائه يحكم باسم المظلومين والكادحين !!

ان الاسلام وحده ، ذلك الدين القيم ، هو الذي يغرس مبادئه في ارض حية من الضمير والاخلاق ... كل انسان مسلم بحق هو عقيدته الحية تمشي على الارض وتتفاعل مع الحياة وتتحرك في الواقع المعيش ... ليس ثمة مجال للتناقض بين المبادئ والاشخاص ، بين القول والعمل ، بين التوجيه والتنفيذ ، وبين الفكرة المقولة والتجربة المعيشة . ان الرسول (ﷺ) يحدثنا فيما يرويه ابو هريرة ، كيف انه سيأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما اخذ منه امن الحلال ام من الحرام .. انه يريد ان يبين لنا كيف ان الاسلام يسعى الى ان يركز اخلاقية العدل الاجتماعي في الاعماق ، اذ بدون هذه لا تستطيع اشد القوانين صرامة واكثر السلطات ضبطا ان تمنع الكسب الحرام والتعامل الحرام والاستغلال الحرام : غشا وسرقة ورشوة وابتزازا واستنزافا في الاسواق السود وركوبا للمناصب من اجل امتصاص دماء الناس وعرقهم ودموعهم.

والحفاظ على اخلاقية (التزام الحلال) في علاقاتنا الاجتماعية مسألة غاية في الصعوبة لان وقودها يجب ان يكون محترقاً دائما : شعورا بالمسؤولية ويقظة في الضمير ، يفجرها

الاحساس الدائم برقابة الله التي لا تند لحظة .. من ثم يغدو هذا الجهد ذو البعد النفسي (جهادا) قاسيا يمنع الانسان المسلم من ان ينحرف بدرجة او اخرى صوب (الحرام) ذلك الموقف الذي هو ضد بداهات العدل الاجتماعي اساسا ، ومن ثم كان الرسول (ﷺ) يقول (طلب الحلال جهاد) وهو يرى ما يستلزمه من ارادة لا يثنيها اغراء عن المضي في الطريق الى نهايته.

ان ثمة صورا رائعة ، مجيدة ، يعرضها تاريخنا ، عن اولئك المسلمين الرواد الذين لم يعرفوا اليمين ولا اليسار ، ولا الديالكتيك ولا الحتميات التاريخية ، ولكنهم عرفوا كيف تكون العدالة الاجتماعية بأعمق مفاهيمها وأسمى أخلاقياتها والذين بايعوا رسولهم العظيم على تحمل مسؤوليتها حتى النهاية.

كثيرون من الصحابة الكبار كانوا في جاهليتهم يملكون القصور والاموال والضياع ، وعندما اعلنوا اسلامهم تنازلوا بكل تجرد عن قصورهم واموالهم وضياعهم ليعيشوا فقراء محرومين من اجل قضيتهم الكبرى ... كثيرون منهم بلغوا اسمى المناصب ولكنهم لم يخونوا الامانة ولم ينسوا يوما الامة المسلمة ولم يغفلوا لحظة عن تجاربها الزاخرة بالسراء والضراء.

ابو بكر (رضي الله عنه) وهو ينفق في سني الدعوة الاولى في مكة ثمرة كدحه وكده عبر عمر حافل نشيط طويل ... اربعين الف درهم ... وعندما يسأله رسول الله (وماذا أبقيت لعيالك؟) يجيب الصديق (أبقيت لهم الله ورسوله).

وعندما توليه الامة منصب الخلافة يفرض له صحابتها الكرام راتبا سنويا محددا قدره مائتان وخمسون دينارا ، ولما لم يجدها تكفي لكي يعيش وعياله الكثيرون عيشة متوسطة ، يطلب اليهم ان يزيدوها والا عاد الى ممارسة التجارة التي أتقنها .. فلا يزيدوه مبلغ (الخمسين دينارا) الا بعد نقاش طويل ، وإقرار من جماهير المصلين في مسجد المدينة. ويبقى دار الخليفة، فاتح العراق والشام ، بسيطا متواضعا في ناحية السنح بأطراف المدينة ، يغدو ويروح اليه كل يوم في اعقاب عمل متواصل حتى صلاة العشاء ، على بغلته التي كانت له قبل ان يتولى الخلافة .. وكم اشتهت زوجته صنفا من الطعام فلم تقدر على (اشباع) رغبتها ، اذ لم يكن لديها ما يعينها على ذلك.

وعمر بن الخطاب لا يبيح لنفسه بعد تسلمه الخلافة من الطعام والكساء اكثر مما لاي فرد من عامة المسلمين ، لانه لم يكن يرى ان له بسبب الخلافة حقا يزيد على ما للمسلمين من حقوق في المال ، فلما جاء عام الجوع وأصاب المنطقة قحط شديد ، اقسم الا يذوق السمن ويأكل طيبا حتى يفتح الله على المسلمين .. وبقي عامه على هذا الحرمان والمسلمون يرون حاله فيشفقون عليه من الجهد الذي يبذله ، حتى بسر وجهه من اكل الزيت مع قلة الطعام الذي يتناوله ورداءته ، وقال أحد الصحابة : " لو لم يدفع الله عام الرمادة لظننا ان عمر سيموت هما بامر المسلمين " .. ويرجوه اصحابه ان يرأف بنفسه ويشفقون عليه من الجهد الذي يبذله ،

ويبيحون له عن طيب خاطر منهم ان يأخذ من بيت المال ما يصلح به شأنه ، ولكنه يرفض ذلك ويصر على رفضه الحاسم قائلا : " وكيف يعنيني امر الرعية اذا لم يمسني ما يمسهم ؟ " انه هنا يقدم لنا شعارا اجتماعيا ، هو جوهر العدل الاجتماعي وروحه الاصيلة ... شعارا لا تفسره الكلمات ، انما (موقف) عمر نفسه وهو (يعاني) مع امته من اجل ان يعمق اهتمامه بمآسيها ومتاعبها وأحزانها.

وكان (ﷺ) يحذر اهله وأقرباءه قائلا " لا اعلم ان احدا منكم وقع في شيء مما نهيت عنه الا ضاعفت له العقوبة " ، ولقد ظل حتى النهاية عند كلمته تلك رغم ما جرعته اياه من الام والحقت به من خسائر مادية ونفسية ، لم تكن وفاة ابنه عبد الرحمن الذي خالف عن امره في مصر ، سوى واحدة منها .. وكان يصادر كل ربح يكسبه احد افراد اسرته من التجارة او الرعي فيضع الربح في بيت المال ويرد المال الى صاحبه ، تخوفا من الشبهات !!

وعثمان بن عفان (رضي الله عنه) يرى المسلمين وقد تقطعت مواردهم في أيام ابي بكر ، ووقعوا في ضائقة اقتصادية قاسية ، ثم ما تلبث قافلته ان تجيئه ببضائع جمة كان قد استوردها من الشام ، فيسرع اليه تجار المدينة ويتقدمون إليه بعروضهم السخية ، لكنه يرفض ويعلن لهم انه قد تركها خالصة لفقراء المسلمين يرد بها عنه غائلة الجوع . ثم هو بعد الخلافة ينام في اطراف المسجد ، متوسدا جبتّه ، ثم يقوم واثار الحصى في جنبه ، فيقول الناس : هذا عثمان بن عفان ، هذا امير المؤمنين. وقال عبد الله بن شداد " رأيت عثمان يوم الجمعة يخطب، وهو يومئذ امير المؤمنين ، وعليه ثوب قيمته اربعة دراهم او خمسة " !؟

وكان كما يحدثنا الحسن البصري " يطعم الناس طعام الامارة ويأكل الخل والزيت " ... اذا قدرت الجماهير يوما ان تحظى بمسؤولين يأكلون الخل والزيت ويطعمون الناس طعام الامارة فان لنا ان نقول ان العدل الاجتماعي قد نفذ فعلا !!

وعلي بن ابي طالب (ﷺ) يلتزم في خلافته الجانب الأصعب من الحياة حرصا على اموال المسلمين ، ويقول احد معاصريه "دخلت على علي في الكوفة وهو يرتجف تحت سمل وقطيفة ، فقلت : يا امير المؤمنين ان الله تعالى جعل لك ولاهل بيتك نصيبا وانت تصنع بنفسك ما تصنع ؟ فقال : والله ما أرزؤكم في ما لكم شيئاً !! ".

صور كثيرة متلاحقة لا يحصيها عد ، مئات من الصحابة المسلمين الرواد وقفوا مواقف كهذه ، وصمموا على البقاء حتى النهاية مع ابناء الامة التي منحتهم ثقتها ومقدراتها ، بقدر صور التناقضات المحزنة التي شهدتها التجارب (الوضعية) علمية وغير علمية ...

ولنا بعد هذا العرض الخاطف ان نجيئ الى " المعلم " الذي تلقى عنه الاصحاب تعاليم العدل الاجتماعي ، وهي لم تجيء على يديه مجرد دساتير وخطبا وكلمات ونظريات علمية ، ولكنها جاءت سلوكا وممارسة وتجربة وعملا وواقعا معاشا. ونقف بعض الوقت لكي نتتبع

تفاصيل حياة النبي اليومية الذي يكاد بعض المؤرخين المحدثين ان يتهمه بالبرجوازية .. كيف كان يأكل ويشرب ، وكيف كان يلبس ، وكيف كان ينام ، واهم من هذا كله ، كيف كان يتعامل مع " المال " .. ولا اظننا بعد هذا بحاجة الى أي تعليق !!

سئلت عائشة (ﷺ) كيف كان رسول الله في بيته ؟ أجابت : " كان بشرا كالبشر يصلح نعله ويرقع ثوبه ويخدم نفسه " كما قال (ﷺ) : " انا اجلس كما يجلس العبد واكل كما يأكل العبد ". كان يجلس على الارض ويوضع طعامه على الارض. كان قدحه من خشب غليظ مضبب بحديد. كان اذا سقى اصحابه شرب آخرهم. واذا لم يجد الطعام صبر حتى انه ليربط على بطنه الحجر من الجوع. كان يعمل في حفر الخندق يوم غزو الأحزاب ، فرأى صحابته الحجر على بطنه من شدة الجوع. وكان يمر عليه الشهر لا يجد ما يخبزه " ولكن كان لنا جيران من الانصار تقول زوجته عائشة نعم الجيران ، كانوا يهدوننا بعض الطعام " ولو كان لنا مصباح تقول عائشة أيضاً لأكلنا زيته !!

صلى مرة جالسا من شدة الجوع. قدموا له عصير اللوز فقال : أخروه عني هذا شراب المترفين. لم يكن لديه قط قميصان معا ولا رداءان ولا إزاران ولا نعلان. واهدي اليه من الشام جبة وخفان فلبسهما حتى تمزقا ، وحج في قطيفة لا تساوي اربعة دراهم. كان يلبس الصوف ارخص شيء وقتها ويخصف النعل ويرقع القميص ويركب الحمار ، وكانت له حصيرة ينام عليها ، ويبسطها في النهار فيجلس عليها .. نام عليها حتى اثرت في جنبه. وكانت له مخدة من جلد حشوها ليف ، واحيانا ينام على عباءة تثنى مرتين ، فطوتها زوجته حفصة أربع مرات ، فلما نام عليها كان من لينها ورفاهيتها ان استغرق في النوم حتى فاتته صلاة الليل ، فنهى حفصة عن ذلك وأمرها ان تعيد العباءة الى وضعها الاول. ورأت امرأة من الأنصار ما ينام عليه فأهدته مرتبة من الجلد حشوها صوف ، فأمر عائشة بأن تردها ، قالت " فلم أردّها حتى امرني ثلاثاً لانني كنت احب ان يكون في بيتي مثل هذا " !! " عن هذه النقطة انظر بالتفصيل " جلال كشك : الحق المر ".

دخل عليه عمر (ﷺ) يوما فراه على حصير قد اثر في جنبه ، ورفع رأسه في البيت فلم يجد الا اهابا معلقا وقبضة من شعير وحصيرا تكاد تبلى ، فبكى عمر ، فقال له : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ قال عمر : يا نبيّ الله ما لي لا ابكي وهذا الحصير قد اثر في جنبك ؟ وهذه خزانتك لا اري فيها إلا ما أرى ، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والانهار ، وانت نبي الله وصفوته ؟ فقال (ﷺ) : افي شك انت يا ابن الخطاب ؟! اولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا !!.

في أحد الأيام الاولى للهجرة ، ايام الجوع والفقر والمسغبة ، يلتقي (ﷺ) في احد ازقة المدينة بجماعة من اصحابه ، تكسو وجوههم الصفرة ، ويطوي اجسادهم العناء وقلة الطعام ،

يشتكون اليه من الجوع ، ويكشفون عن بطونهم التي يشد كل منهم عليها قطعة من حجارة ليسكت جوعتها ، فيبتسم الرسول (ﷺ) ولا يعزيهم بالكلمات ، فالكلمات في ساعات الجوع الكافر لا تغني ولا تطعم ، يكشف لهم بطنه فاذا به قد شد عليها قطعتين من الحجارة الصماء !!

قال : أني اتزوج النساء ، واكل اللحم وأنام واقوم واصوم وافطر ، فمن رغب عن سنتي فليس مني .. فلا يتصور أحد ان الرسول في مواقفه التي نعرضها هنا كان يدعو الى الزهد والفرار .. وناداه رجل يا سيدنا وابن سيدنا فقال : لا يستهوينكم الشيطان ، انا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، والله ما احب ان ترفعوني فوق منزلتي . وكان أصحابه إذا رأوه قادما عليهم لم يقوموا اليه ،وهو احب الناس إليهم ، لما يعرفون من كراهيته لقيامهم . وكان يكره ان يمشي اصحابه وراءه ، ويأخذ بيد من يفعل فيدفعه الى السير بجانبه .. رآه رجل فارتعد ، فقال رسول الله (ﷺ) : هون عليك فاني لست ملكا ، انما انا ابن امرأة كانت تأكل القديد ... ما كان يغلق دونه الابواب ، ولا يغدى عليه بالجفان ولا يراح عليه بها ... كان من اراد مقابلة نبي الله يقابله!! (انظر : جلال كشك ، الحق المرّ).

ونعود مرة اخرى الى طعام رسول الله (ﷺ) ما دام بحثنا هذا ينصب بالدرجة الاولى على مسألة "الطعام" كحاجة اساسية . روى البخاري ان انس ابن مالك قال : ما اعلم (ﷺ) رأى رغيفا مرفقا حتى الحق بالله ، ولا رأى في بيته شاة سميطا بعينه قط. وعن عائشة قالت : انا كنا لننظر الى الهلال ، ثلاثة اهلة في شهرين ، وما اوقدت في ابيات رسول الله نار. فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يعيشكم ؟ اجابت : الأسودان ، التمر والماء.

وقالت (رضي الله عنها) : لقد توفي رسول الله (ﷺ) وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد الا شطر شعير في رف لي !! وعن انس قال .. ما اعلم النبي (ﷺ) خبز له مرقق قط ولا اكل على خوان قط. وعن ابي هريرة ان رسول الله (ﷺ) خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير. وعن عائشة قالت : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض. وعن انس انه مشى الى النبي بخبز شعير .. وقال : لقد رهن النبي درعا بالمدينة عند يهودي وأخذ منه شعيرا لأهله ، ولقد سمعته يقول : ما أمسى عند آل محمد صاع بر ولا صاع حب .. وعن ابي هريرة قال : كان رسول الله (ﷺ) يؤتي بالتمر عند ضرام النخل فيجيء هذا بتمره وهذا من تمره حتى يصير عنده كوما من تمر ، فجعل الحسن والحسين يلعبان بذلك التمر ، فأخذ أحدهما تمرة فجعلها في فيه ، فنظر اليه رسول الله فأخرجها من فيه ، فقال .. أما علمت ان آل محمد لا يأكلون صدقة ؟

وماذا عن نساء الرسول (ﷺ) وبناته وأهل بيته ؟ اشتكت اليه فاطمة بنته ما تلقاه من أعمال البيت من شدة وعناء ، وطلبت اليه ان يخدمها خادما فرفض (ﷺ) ذلك وقال لها : لا أعطيك وادع اهل الصفة (وهم جماعة من الفقراء) تطوى بطونهم من الجوع . وأتى النبي بيت

فاطمة ليزوره ، ثم عدل فلم يدخل عليها ، فبعثت عليا ليسأل الرسول (ﷺ) عن سبب عدوله عن زيارتها ، فأجاب الرسول : اني رأيت على بابها سترا موشيا .. وأرى ان ترسلي به الى اهل بيت فلان فهم في حاجة .. وأراد زيارتها مرة أخرى ، فعاد كذلك دون ان يدخل عليها ، فأرسلت متسائلة عن سر ذلك فأجابها : أني وجدت في يديها سوارين من فضة !! فبلغها ذلك ، فأرسلتهما إليه ، فباعهما وتصدق بثمنهما على الفقراء !!

أما نساؤه فقد اوجب الرسول (ﷺ) عليهن كما يقول محمد الغزالي " ان يتحملن شدة ما كن يعرفنها من قبل. لقد جئن اليه من بيوتات كبيرة ، وأكثرهن اعتادت في صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة الدافقة ، اما مع ابائهن واما مع رجالهن السابقين ، فلا عجب اذا تململن من هذه الحياة الجديدة ، وطلبن الرغد والنعومة ، وتجمعن ليسألن الرسول (ﷺ) مزيداً من النفقة تتزعمهن عائشة بنت ابي بكر وحفصة بنت عمر (رضي الله عنهما) ... وحزن رسول الله لهذه المظاهرة . انه المسلم الاول على ظهر الارض ، وابصار المؤمنين والمؤمنات ترنو اليه من كل ناحية ، وهو بصدد بناء امة تشق طريقها وسط الوف مؤلفة من الخصوم المتربصين ، فإذا لم يعش بيته عيشة المجاهد المحصور فكيف يواصل الكفاح ويكلف الرجال والنساء من امته ان يذهلوا عن كل شيء الا السير بدينهم حتى يبلغ مأمنه ؟ لذلك رفض النبي (ﷺ) الاستجابة لرغبات نسائه في توسيع النفقة ، وكره منهن هذا التطلع ، فقرر مقاطعتهن حتى شاع بين الناس ان النبي (ﷺ) طلق نساءه جملة .. وفزع ابو بكر وعمر لهذه الاشاعة ، فذهبا يستأذناه ليدخلا عليه ، وليتعرفا جلية الخبر ، فلما دخلا وجدا النبي صامتا وحوله نساؤه واجمات. وسأله عمر : أطلقت نساءك يا رسول الله ؟ قال : لا .. الا ان جو الحزن كان يخيم على المكان. فقال عمر : لأكلمن رسول الله لعله يضحك !! فقال : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد يعني زوجته سألتني النفقة لوجأت عنقها ! فضحك النبي حتى بدا ناجذه وقال : هن حولي يسألنني النفقة ؟ فقام ابو بكر الى عائشة يؤدبها وقام عمر إلى حفصة كل منهما يقول : تسألان النبي ما ليس عنده ؟! وهجرهن النبي شهرا ، حتى يشعرن بما فعلن ، ونزلت آيات التخيير من عند الله تطلب إليهن جميعا اما التجرد للدار الآخرة مع رسول هذه طريقة في حياته ، واما اللحاق بأهلهن حيث الملابس الحسنة والمآكل الدسمة : ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا(٢٨)وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾. وكان هذا الدرس كافيا ليمحو اخر ما في انفسهن من رغبة لا تتجاوز المباحات المشتهاة ! فاخترن جميعا البقاء مع النبي.

ولا بأس هنا ، ونحن نتحدث عن زوجات الرسول (ﷺ) ، ان نشير الى ما ذكره محمد أسد (ليوبولد فايس) في كتابه (الطريق الى مكة) عن زوجة (مكسيم غوركي) ، الأديب الاشتراكي

الكبير ، حيث يقول " في عام (١٩٢١) حلت بروسيا السوفياتية مجاعة انتشرت فيها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل. كان الجوع يعض بنابه ملايين الخلق ، وكان مئات الالوف من الناس يموتون من الطوى ... ووضعت الخطط من اعمال الاغاثة الاجنبية ... كذلك قاد مكسيم غوركي احدى الحركات الواسعة النطاق داخل روسيا ... وفي ذلك الحين ترددت شائعات مفادها ان زوجته ستزور قريبا عواصم اوربا الوسطى واوربا الغربية محاولة تعبئة الرأي العام العالمي لأسداء معونة اكثر فعالية وجدوى .. " ويمضي اسد في حديثه الى ان يصل بنا لحظة السماح بمقابلته الصحفية مع (السيدة) " ... لقد كانت امرأة صغيرة ناعمة ، في الخامسة والاربعين على وجه التقريب ، مرتدية ثوبا اسود حسن التفصيل ، وعلى كتفها دثار حريري طويل يرفل وراءها على الأرض. لقد كانت أرستقراطية خالصة في مظهرها بحيث انه كان من العسير حقا تصورها زوجة لشاعر (الإنسان الكادح) ، ومن العسير كذلك تخيلها احدى مواطنات الاتحاد السوفيتي "!!

***

أما المفكر الفرنسي (اندريه جيد) الذي قال يوما " لقد تحدثت من سنوات عن حبي واعجابي بالاتحاد السوفيتي حيث كانت تتم تجربة لم يسبق لها مثيل ، تجربة ملأت قلبي بالامال العظام في تقدّم رائع يشمل البشرية كلها ويدفع بها الى الامام. لقد كان مما اسعدني انني عشت في ذلك الوقت كي اتمكن من مشاهدة هذا البعث الجديد ومن تقديم حياتي رخيصة في سبيله. لقد صممت في داخلي على ان اربط نفسي بمصير الاتحاد السوفيتي باسم ثقافة المستقبل ".

فلنستمع اليه بعد ان استضافه الاتحاد السوفيتي عام (١٩٣٦) يقول " انني ما سافرت في حياتي في مثل هذه الأبهة والنعمة. كنت في كل مكان اركب افخم السيارات واسكن في الفنادق افخم الحجرات واكل افخم الاطعمة ، وكانت لي عربة خاصة في القطارات. وهكذا كنت احصل دائما على الافضل في كل شيء ، واي تكريم ذلك الذي لقيته في كل مكان ! لقد كان يهتف لي ويولم لي ولم يكن شيء اغلى من ان يقدم لي. وما كان يمكن الا ان احمل معي اعجب الذكريات عما لقيت من ترحيب. الا ان كل هذا التكريم ، مع ذلك ، كان يذكرني دائما بالامتيازات والفروق ، بينما كنت ارجو ان اجد المساواة ، ولما استطعت ان افلت من الموظفين الرسميين وأدخل بين العمال ، اكتشفت ان معظمهم يعيش في فقر مدقع بينما في كل مساء تقام لي أنا الولائم التي كانت فيها فواتح الشهية وحدها من التنوع والدسامة والكثرة بحيث تتخم الشهية قبل ان يبدأ الطعام الاساسي ، ذلك الطعام الذي كان من ستة ادوار تتطلب من المطاعم بضع ساعات. ولما كنت لم احتج ابدا الى تسديد حساب طوال فترة وجودي في الاتحاد السوفيتي فإن من الصعب علي ان اقدر تكاليف امثال هذه الولائم. الا ان صديقا لي مطلعا على مستوى

الاسعار في الاتحاد السوفيتي اخبرني ان الفرد الواحد في امثال هذه الولائم يتكلف بين المائتين والثلاثمائة روبل ، هذا بينما العمال الذين التقيت بهم ما كانوا يربحون سوى خمس روبلات في اليوم. وكان عليهم ان يكتفوا بالخبز الاسود والسمك المجفف ... لقد ذهلت لما رأيت الفرق العظيم بين نصيبنا ونصيب عامة الناس ، بين هذا الترف الزائد وهذا الفقر المدقع ... ان الذي آلمني اكثر من غيره ان وجدت في روسيا ما كنت اضيق به في بلدي ، تلك الامتيازات والفروق التي حسبت انها قد ذهبت الى غير رجعة ".

ويمضي جيد الى القول " ... إن العمال طبعا لم يعد يستغلهم حملة الاسهم الرأسماليون، الا انهم مع ذلك يستغلون ابشع الاستغلال وبطرق خفية منحرفة ملتوية بحيث لم يعد العمال يعلمون على من يلقون اللوم. ان غالبيتهم العظمى يعيشون تحت مستوى الفقر ، وان اجورهم الهزيلة هذه هي التي تعين على ملء جيوب العمال المميزين الذين يمتازون بانعدام الشخصية وبالتزلف والخضوع. ان الانسان ليروعه ما يلحظه على ذوي الشأن من عدم مبالاة بمن هم اقل منهم شأنا ، كما يروعه ما يظهره الأخيرون من تذلل وعبودية آمنا بأنه لم تعد هناك طبقات او امتيازات طبقية في الاتحاد السوفيتي ، الا ان الفقراء لا زالوا هم الفقراء ، بل ان عددهم جد كبير ... انني اخشى ان يكون معنى هذا كله العودة الى نوع من (بورجوازية الطبقة العاملة) تشبه (البورجوازية الحقيرة) التي تركتها في بلدي ، ولقد بدأت فعلا أرى أعراضها ... ان الإنسان لا يمكن إصلاحه من الظاهر فان تغيير القلب وإصلاحه أمر جوهري .. !! ".

وما يلبث جيد ان يعطينا امثلة اخرى مما رآه هناك " عندما زرت (سوتشي) عجبت لكثرة المصحات والاستراحات التي أنشئت لاجل العمال ... الا ان من المؤسف ان غالبية من يتمتعون بهذه الميزات هم من الطبقة المميزة الجديدة .. وإنه لمن المحزن ان نرى قريبا من هناك الرجال الذين يعملون في بناء هذه الاستراحات ذاتها ، وكيف يحصلون على اجور غاية في الضالة ، ويحشرون في مخيمات دنيئة حقيرة. واذا كنت احمل كل هذا الاعجاب للاستراحات في (سوتشي) فماذا اقول عن فندق (سينوب) الذي كنت اقطن فيه ؟ لقد كان ارقى واسمى من كل شيء اخر بحيث لا يقارن الا بأفخم فنادق اوربا وأعظمها. كانت كل غرفة لها حمامها الخاص وشرفتها وأثاثها الفاخر ، كما كان الطعام يوازي الاطعمة في أي مكان آخر. وكان بجوار الفندق مزرعة نموذجية تمده بثمرها ، وكانت المزرعة تشتمل على زرائب نموذجية للخيل والبقر والخنازير وبيوت للدجاج ، وكلها مهيأة بالوسائل الحديثة. الا انك اذا عبرت النهر الذي يحد هذه المزرعة رأيت صفا من الأعشاش الحقيرة ، يعيش في كل حجرة من حجره الصغيرة (ستة اقدام مربعة) اربعة افراد ، ويدفع كل منهم روبلين ايجارا شهريا ... ".

" ... انني أرى منذ الآن بذورا بورجوازية تنتشر بين هذه الجماهير التي لم تختبر بعد. بورجوازية فيها كل ما فينا من أخطاء وآثام. انهم لا يكادون يرتفعون قليلا عن مستوى الفقر

حتى يحتقرون الفقراء ، ويتملكهم الحسد والرغبة في تملك كل ما كانوا محرومين منه من عهد طويل ، انهم يعرفون الآن كيف يتملكون هذه الاشياء وكيف يحافظون عليها فلا تضيع ... "
(احيل القارئ الى الكتاب الذي نقلت عنه مقاطع من حديث جيد : (الصنم الذي هوى) والذي ألّفه ستة من كبار الكتاب وترجمه فؤاد حمودة).

***

وماذا عن تعامله (ﷺ) مع المال ؟!

في اعقاب معركة حنين (سنة ٨هـ) عندما راح يوزع الغنائم الوفيرة التي تجمعت لديه من جراء هزيمة خصومه ، ناداه الأعراب الفقراء : يا رسول الله اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم ، وازدحموا عليه حتى ألجأوه إلى شجرة اختطفت عنه رداءه فقال : ردوا علي ردائي ايها الناس فوالله لو كان لكم عندي بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا. وتقدم الى بعير قريب منه فاستل منه وبرة جعلها بين إصبعيه ، ثم رفعها وقال : أيها الناس والله ما لي من فيئكم ، ولا هذه الوبرة ، إلا الخمس والخمس مردودة عليكم !! ... كان (ﷺ) – كما وصفه اعرابي – يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ...

ويوما خرج (ﷺ) وصاحبه ابو ذر (رضي الله عنه) يتمشيان في اطراف المدينة ، فاستقبلهما جبل احد. قال ابو ذر : فخاطبني الرسول (ﷺ) : يا ابا ذر ! قلت : لبيك يا رسول الله. قال : ما يسرني ان عندي مثل احد هذا ذهبا أموت وعندي منه دينار الا ان أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه وشماله وخلفه. ثم مشى فقال : ان الاكثرون هم الاقلون يوم القيامة ، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا ... وقليل ما هم !!

ومات رسول الله ...

عن عمرو بن الحارث قال : " ما ترك رسول الله (ﷺ) عند موته درهما ولا دينارا ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا الا بغلته البيضاء ، وسلاحه ، وارضا جعلها صدقة" !!!

ونترك زعماء اليساريات وقادتها وكوادرها المتقدمة وهي لا تزال تحمل شعارات الثورة من اجل العدل والمساواة ، مرتفعة بها بخفة وتمرس نادرين على أكتاف الكادحين والجائعين ، الى سدة الحكم والسلطان ، حيث تبدأ مأساة (الطبقة الجديدة) التي حدثنا عنها دجيلاس ، بحيازة هؤلاء القادة والزعماء للاموال والمزارع والقصور والمراكب الفارهة ، وانغمارهم في الملاهي والترف والملذات.

ونتذكر قبل ان نمضي الى ختام مقالنا هذا ما ذكره عروة بن الزبير عن ابي حميد الساعدي من ان رسول الله (ﷺ) استعمل رجلا من الازد على صدقات بني سليم ، فلما جاء

بالمال حاسبه رسول الله ، فقال الرجل : هذا لكم وهذا هدية اهدي الي ، فقام النبي (ﷺ) خطيبا بالناس ، وقد احمر وجهه (!!) فحمد الله واثنى عليه ثم قال " ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله ، فيقول هذا لكم وهذا اهدي إلي ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته ؟! والذي نفس محمد بيده لا نستعمل رجلا على العمل مما ولانا الله فيغل منه شيئا الا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه " ... ثم رفع يديه الى السماء .. وقال : " اللهم هل بلغت ؟ اللهم فاشهد !! ".